الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الدكتور الطاهر مولاي * سعيدة

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الإنسانية

شعبـــــة التاريخ

مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستر تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي

كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للقاضي عياض وأهميته في حلقات الدرس المغربية

إعداد الطالبة:

لقـــــرع خيرة

إشراف الأستاذ:

دلباز محمد

لجنة المناقشة:

الأستاذ		رئيسا
الأستاذ	دلباز محمد	مشرفا
الأستاذ		مناقشا

السنة الجامعية

1438/1437هـ * 2017/2016م

الإهـــــداء

أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع:

إلى الوالدين الكريمين حفظهما الله ورعاهما

إلى جدي أطال الله في عمره وإلى الجدتان شفاهما الله

إلى روح جدي وجدتي الطاهرة، اللهم أسكنهما فسيح جنانك

إلى سندي وفخري في الحياة أخواتي: فوزية – أسماء – فاطمة

وهاجر

إلى الأخت زهرة شفاها الله

إلى كل أفراد عائلة لقرع – مرابط – حمادي – عمارة

إلى جميع الأقارب والأحباب والأصدقاء: سعدية عوينان – مغربي فتيحة – مغربي زبيدة

آمال ولد قادة – بوعوجة فاطمة

لقرع خيرة

شكـــر وتقدير

أشكر الله العلي القدير الذي وفقني إلى إنجاز هذا العمل المتواضع، راجية منه سبحانه وتعالى أن يجعله نافعا في الدنيا ويجزيني ثوابه في الآخرة.

كما أتوجه بالشكر الخالص إلى أستاذي الفاضل دلباز محمد الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث، وكان لي عونا ومرجعا ولم يبخل علي بتوجيهاته القيمة.

شكر خاص إلى كل أساتذة التاريخ بجامعة سعيدة، وإلى أعضاء اللجنة المناقشة الذين تحملوا مشقة قراءة هذا البحث.

إلى من سهر على إخراج هذا العمل بهذه الحلة البهية، الأخوة: سمير – سفيان

إلى طلبة تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي دفعة 2016 / 2017.

إلى كل معلمينا وأساتذتنا عبر مختلف أطوار التعليم

قائمة المختصرات:

تح	تحقيق
ط	طبعة
مج	مجلد
ج	جزء
د.ط	دون طبعة
د.ت	دون تاريخ نشر

مقدمـــــــة

ما من شك فيه أن لكل مجتمع أحواله وتطوراته التي تشمل مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية، قد تؤثر سلبا أو إيجابا في شخصية أفراده، وخير مثال على ذلك القاضي عياض الذي عاصر رحمه الله تعالى حكم مرحلتين مرت بها بلاد المغرب، وتتمثل المرحلة الأولى في دولة المرابطين والمرحلة الثانية في دولة الموحدين.

كان لازدهار الحركة الفكرية والعلمية في بلاد المغرب في هاته المرحلة أثره البالغ في تكوين شخصية هذا الإمام الفذ، الذي يعد بحق أحد علماء الأمة العاملين الذي أجمع المسلمين على أنه عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، حتى قيل أنه لولا عياض ما عَرَفَ المغرب الإسلام، هذه العبارة في حد ذاتها تعبر عن المكانة العلمية والاجتماعية للقاضي عياض.

كما للقاضي عياض رحمه الله تعالى آثار علمية قيمة وعديدة، قد أسهمت في إثراء المكتبة الإسلامية، التي أضحى الكثير منها من المصادر الأساسية لطلبة العلم، وقد تناقلها أهلا العلم شرقا وغربا وأثنوا عليها ومن بين هاته المصنفات كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، ثمرة جهود القاضي عياض، هذا الكتاب الجليل الذي ذاعت شهرته في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وهو من الكتب التي كان يدرسها في حياته لعدد لا يحصى من الناس كما تناقله الناس عنه بعد وفاته.

لذا جاء هذا البحث موسوما بـ "كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم وقيمته العلمية في بلاد المغرب".

وتكمن أهمية الموضوع في:

- أنه كتاب من خير الكتب التي عرفت بحقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقد أحاط الكتاب بصفات الرسول صلى الله عليه وسلم، وسرد الكثير من الحوادث والأخبار، وقد اعتمد في ذلك كله على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، واستدل بآراء المفسرين والمحدثين فيما جاء به.

- كون الكتاب يعتبر مثلا أعلى في الإحاطة والتنسيق والتوثيق ولهذا اعتبره الكثير من أفاضل الأمة والمؤرخين والمحققين من خير الكتب في موضوعه.

- كون سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم تحمل في ثناياها عدة معاني ودروس وعبر تجعل من دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية.

هناك عدة عوامل عديدة دفعتنا إلى دراسة هذا الموضوع، وتتمثل أبرزها في:

- بعدما كلفت بهذا العمل وبعد إطلاعي على موضوع الكتاب وأنه يحمل في طياته صفحات من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، زاد تمسكي به، فالسيرة النبوية تكمن فائدتها في الاقتداء به والبحث عن أخلاقه وحياته صلى الله عليه وسلم، ولها الحضور الدائم في حلقات العلم والمعرفة، والحاجة لمعرفتها ضرورية لكل مسلم كيفما كان.

ولدراسة هذا الموضوع طرحنا **الإشكالية** التالية:

فيما تمثل دور كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم في حلقات الدرس المغربية؟ وما تأثيره في الحركة العلمية في بلاد المغرب؟ وهل كان هذا الكتاب سببا فيما أحيط به القاضي عياض من احترام وتوقير لدى العامة والخاصة؟

ومن هو القاضي عياض؟ وما هي الظروف والملابسات المحيطة بشخصيته وبتكوينه الثقافي؟ وفيما تمثل أثره العلمي؟ وفيما تمثل منهجه وأسلوب القاضي عياض في كتابه الشفا؟ وفيما تتجلى القيمة العلمية لهذا الكتاب؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات اتبعنا خطة مكونة من مدخل، مقدمة، ثلاثة فصول وخاتمة.

ففي المدخل تطرقنا إلى أهم الميزات التي ميزت الفترة التي عاش فيها القاضي عياض من الناحية السياسية والثقافية.

أما فيما يخص الفصل الأول فجاء كالآتي، القاضي عياض حياته وعلمه وآثاره، فتناولنا فيه التعريف بالقاضي عياض ومكانته العلمية وشيوخه وتلامذته، ثم وفاته ومؤلفاته.

وفي الفصل الثاني، عالجنا فيه كتاب الشفا من ناحية موضوع الكتاب وسبب تأليفه والمنهج والأسلوب الذي اتبعه المؤلف في كتابه الشفا، والمصادر التي استقى منها المؤفل مادته.

وفي الفصل الثالث تحدثنا عن قيمة الكتاب وبيان أثره في الحركة العلمية في بلاد المغرب، فتطرقنا إلى مزايا الكتاب ومآخذه وشروح الشفا ومختصراته وطبعاته إضافة إلى أثر الكتاب في الحركة العلمية في بلاد المغرب.

وفي الأخير خاتمة التي استعرضنا فيها أهم الملاحظات والآراء التي توصلنا إليها.

أما فيما يخص المنهج المتبع ، فقد اعتمدت على المنهج التاريخي، وذلك من خلال الاعتماد على ما تيسر إلى الوصول إليه من المصادر والمراجع ذات الصلة بالموضوع في تتبع حياة القاضي عياض وتاريخ الفترة التي عاش فيها بصفة عامة وأهم آثاره العلمية، والمنهج التحليلي وذلك من خلال كتاب الشفا الذي لقي رواجا كبيرا في بلاد المغرب وتبيان القيمة والمكانة العلمية التي حظي بها.

وككل بحث هناك صعوبات تواجه الباحث في مسيرة بحثه ولعل أبرزها:

- قلة المادة العلمية في الموضوع، خاصة أن كتاب الشفا لم يلقى إقبالا كبيرا في البحث العلمي، وقلما نجد من تناول الموضوع بالتفصيل.
- وهناك بعض الكتب والدراسات وقفنا على عناوينها، دون أن نتمكن من الحصول عليها من بينها:
- القاضي عياض الأديب لعبد السلام شقور، حيث تناول صاحب الموضوع شخصية القاضي عياض ومؤلفاته خاصة كتاب الشفا، وخطبه وشعره..... الخ.
- القاضي عياض الشخصية والدور الثقافي لمحمد الكتاني.

واعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع، مع أن المصدر الأساسي لهذا البحث هو (كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم) لأنه مجال الدراسة:

- **كتاب التعريف بالقاضي عياض** لولده عبد الله وهو مصدر مهم لا يمكن الاستغناء عنه إذ يتناول حياة القاضي عياض من حيث (اسمه ونسبه وشيوخه ومؤلفاته....).
- **كتاب الغنية فهرست شيوخ القاضي** ، تحقيق ماهر الجزار، وتضم تراجم شيوخه فقد بلغوا المائة، وتعتبر من المشيخات العظيمة، ففي ترجمة القاضي عياض لكل شيخ من شيوخه يذكر ما أخذه عنهم سماعا أو إجازة.
- **كتاب أزهار الرياض** من خير ما ألف في أدب المغاربة، مؤلفه هو حافظ عصره في علوم الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني في صاحب نفح الطيب، وتضمن الكتاب ترجمة واسعة للقاضي عياض من (ولادته ونشأته في صباه وشبابه وذكر شيوخه، والذي أخذ العلم عنهم وتلاميذه وعمله ووفاته وآراء الناس فيه، كما يذكر مؤلفاته وما قيل عنها).
- **كتاب القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته** للدكتور الحسين بن محمد شواط، وهو مرجع مفيد، فهو يتطرق إلى ترجمة واسعة للقاضي عياض، حيث فصل القول في عطاءاته العلمية من حيث التدريس والقضاء والشورى والتأليف..... الخ.
- **كتاب القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية** للأستاذ البشير حمد الترابي، الذي تناول فيه إسهامات القاضي عياض وجهوده في الحديث وعلومه وتأثيره فيمن جاء بعده.
- **كتاب السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض** للدكتور أحمد جمال العمري، اهتم بدراسة طريقة عرض القاضي عياض لسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وذلك من خلال كتاب الشفا.
- يضاف إلى ذلك مجلة المناهل المغربية العدد 19 سنة 1980، وهو عدد خاص بالقاضي عياض إذ احتوت معلومات جد مهمة ومفصلة عن القاضي عياض.

مدخـــــــــــل

مدخل

وافق نشأة القاضي عياض والشطر الأكبر من حياته زمن الاستقرار والرخاء في بلاد المغرب، مما ساعده على التفرغ لطلب العلم ووفرة العطاء بعد ذلك في مجالات التعليم والتأليف والقضاء والشورى.

أما الفقرة الأخيرة من حياته فقد كانت زمن بلاء وفتنة واضطرابات، قام فيها القاضي بواجب الجهاد دفاعا عن معتقده، وأداء للأمانة المناطة بأعناق أهل العلم.

ففي المرحلة الأولى عاصر عياض دولة المرابطين، وكان لها مواليا مطيعا.

وفي المرحلة الثانية عاصر دولة الموحدين، وكان لها معارضا مجاهدا، لأسباب شرعية اقتضت ذلك.[1]

أولا: دولة المرابطين 435–541هـ / 1056-1146م:

يعود أصل المرابطين إلى صنهاجة [2] الجنوب الضاربة في الصحراء، وكان يطلق على هذه القبائل بصنهاجة اللثام، لأن أفرادها كانوا يضعون اللثام على وجوههم، وقد اختلف المؤرخون في سبب ارتدائهم اللثام فمنهم من يرى أن سبب تلثمهم يرجع إلى كونهم آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وكان عددهم قليل فتعرضوا إلى المضايقة من قبل أهل الكفر فتلثموا وفروا بأنفسهم من اليمن إلى المغرب، وصار اللثام زيا لهم، ويرى البعض الآخر أن سبب ذلك راجع إلى معتقدات آمنوا بها.[3]

تولى أمر صنهاجة يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي توجه لأداء فريضة الحج، وفي طريق العودة مر بالقيروان، وذلك سنة 440هـ، فأتيح ليحيى بالقيروان سماع عالم من أعظم علماء المالكية، وعلوم الدين هو أبو عمران الفاسي[4] فسأله عن قومه فأجابه: (أنهم قوم غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم، وفينا أقوام على تعلم العلوم يحرصون وعلى التفقه في الدين يرغبون، فعسى يا سيدي تنظر في من يتوجه معي إلى بلادنا ليعلمنا ديننا).[5]

---

[1] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، دار القلم، دمشق، 1419هـ - 1999م، ط1، ص: 15.

[2] هم عدة قبائل ينتسبون إلى حمير أشهرها: لمتونة، جدالة، لمطة، ينظر: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان، 2012، ج8، ص: 134.

[3] فرانس سليم السامرائي، تاريخ المغرب العربي، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، 2012، ط1، ص: 137.

[4] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، 1983، ط3، ج 4، ص: 7؛ ينظر: أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري، محمد الناصر، دار الكتاب، 1954، ج2، ص: 5.

[5] ابن عذارى المراكشي، المصدر لسابق، ج4، ص 7.

فعرض الأمر على الطلبة هناك، فلم يجد أحد يوافقه على ذلك، والسبب راجع إلى بعد المسافة وصعوبة المهمة.

فدل الفقيه على رجل من فقهاء المغرب الأقصى اسمه واجاج [1]، فأعطاه كتابا يوصله إليه.

فلما وصل الفقيه يحيى بن إبراهيم إلى أقصى المغرب وجده في موضع يقال له ملكوسن، وأعطاه كتاب الفقيه أبي عمران الفاسي الذي اختار الفقيه عبد الله بن ياسين الجازولي (ت، 451هـ).[2]

سار عبد الله بن ياسين مع الأمير يحيى الجدالي إلى قبيلة جدالة، الذين فرحوا في مقدمه واجتمع حوله سبعون شيخا من أهل الخير منهم، ليعلمهم وينفعهم في أمور دينهم، وبعدها إلى قبيلة لمتونة، وحارب المعارضين لدعوتهم وتمكن من ضم عدد كبير منهم إلى جانبه.[3]

ورغم مظاهر الترحيب الذي قوبل به في البداية، فإن الداعية لقي معارضة قوية من قبل أعيان القبيلة على الخصوص.

وتفسير هذا الموقف بتعارض دعوة بن ياسين مع أعراف تلك القبائل، وانتهت المعارضة بانقلاب تزعمه الأعيان، ليقع طرده من ديار لمتونة وأصيبت الحركة بانتكاسة خطيرة، لولا فكرة إنشاء الرباط.[4]

وتيمنا بهذا الرباط أطلق الشيخ عبد الله بن ياسين اسم المرابطين على إخوانهم بعد أن زاد عددهم عن ألف رجل، وذلك لما علمه فيهم من صبر وحماس لنصرة الإسلام والدفاع عنه.[5] عنه.[5]

---

[1] الفقيه الصالح أبو محمد واجاج بن زلو اللمطي، من أهل السوس الأقصى، رحل إلى القيروان وقرأ بها على الشيخ أبي عمران الفاسي، ورجع إلى السوس وبنى دار لطلبة العلم؛ ينظر: مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط 1، 2005، ص 105؛ ينظر: أبي يعقوب بن يحيى التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد توفيق، الرباط، 1404هـ - 1984م، ص: 89.

[2] هو الفقيه عبد الله بن ياسين الجازولي المجاهد، المرابط، الورع، الزاهد، الصوام، القوام؛ ينظر: علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص: 124.

[3] فراس سليم السامرائي، المرجع السابق، ص: 139.

[4] إبراهيم القادري بوتشيشت، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، (د.ت)، ص: 10.

[5] حامد محمد خليفة، انتصارات يوسف (400-500هـ / 1009-1106م) بطل حركة الزلاقة وقائد المرابطين موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين، مكتبة الصحابة، الإمارات، ط 1، 1425هـ - 2004م، ص 11؛ ينظر: السلاوي، المصدر السابق، ج3، ص: 8.

وقد وردت الإشارة في القرآن الكريم إلى الرباط والمرابطة في قوله سبحانه وتعالى: "يَأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ".[1]

وقوله تعالى: "وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ".[2]

كما ذكرنا سابقا لما اجتمع له نحو ألف رجل سماهم المرابطين، وتغير أسلوبهم من الاعتماد على الحجة والإقناع إلى استعمال القوة والعنف، وبهذه الوسيلة تمكن ابن ياسين من استئصال شاقة كل المخالفين عليه من لمتونة ومسوفة وجدالة وسائر القبائل الصنهاجية.[3]

وسرعان ما توسع سلطان هذه الدولة في عهد يوسف بن تاشفين [4]، فسيطرت على المغربين الأقصى والأوسط، إضافة إلى بلاد الأندلس.

إن هذه الدولة قد وحدت بلاد المغرب والأندلس بعد أن كانت ممزقة ومقسمة إلى دويلات وقبائل متناحرة، وتبنت عقيدة أهل السنة والإجماع في الأصول، ومذهب مالك بن أنس في الفروع، وحكمت بالعدل وخاصة في عهودها الأولى، واحترمت العلماء، وقدمت الفقهاء وأصغت لهم، ونفذت ما يأمرون به.

ونظرا لعناية هذه الدولة بالعلم وتكريمها للعلماء، فإن الحياة العلمية قد ازدهرت، وكثر العلماء وشاعت التصانيف، وقويت الرحلات العلمية، وتعددت مجالس العلماء وكثر طلابها ومن مشاهير العلماء الذين عاصروا هذه الدولة:[5]

- **أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي:** الفقيه، الحافظ، الناظر، العالم، له حوالي ثلاثين كتابا، منها: المنتقى في شرح الموطأ والتعديل والتجريح وإحكام الفصول في أحكام الأصول.

- **أبو علي الحسين بن محمد الغساني:** المعروف بالجياني (ت، 498هـ)، إمام المحدثين في وقته مع تقدمه في الفقه ومشاركته في سائر العلوم، له حوالي عشرة كتب،

[1] آل عمران، الآية 200.
[2] الأنفال، الآية 61.
[3] عبد القادر بوتشيشت، المرجع السابق، ص: 10.
[4] هو أمير المسلمين والسلطان أبو يعقوب بن يوسف بن تاشفين اللمتوني البربري، وهو الذي بنى مراكش؛ ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص 136؛ شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1418هـ - 1996م، ط11، ج 19، ص: 225.
[5] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص، ص: 16 – 19.

منها: (تقييد المهمل وتمييز المشكل، ضبط رجال الصحيح، شيوخ النسائي، وشيوخ أبي داود).[1]

- **أبو علي الحسين بن محمد الصدفي:** (ت، 514هـ)، القاضي كبير المحدثين وأحد الحفاظ المتقنين، كان متقدما في معرفة روايات الحديث وطرقه وعلله وأسماء رواته، له فهرست لشيوخه ومروياته، ويلاحظ أنه لم يتوسع في التأليف لتركيزه على التدريس.[2]

المجال لا يسمح لنا بذكر جميع العلماء الذين برزوا في هذه الفترة لذلك ارتأينا إلى ذكر البعض منهم، ويبقى المجال مفتوحا للتوسع أكثر في هذا الموضوع.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن تأييد العلماء لهذه الدولة كان مرتبطا بمدى التزام حكامها لجانب الحق والعدل، وتنفيذهم لأحكام الشرع، فنجد العلماء يأمرون وينهون، ويتوقفون عن تنفيذ ما فيه مخالفة للشرع، مع بيان الحق فيه، وقد ظهر الظلم في العهود الأخيرة لهذه الدولة، فبدأت مساحة سلطانها تتقلص لفائدة دولة الموحدين.[3]

ثانيا: دولة الموحدين (541-868هـ / 1146-1463م)

أسست هذه الدولة على يد أبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن تومرت [4]، والملقب بالمهدي، وقد بدأ أول أمره بطلب العلم في بداية القرن السادس الهجري، ويرى عدد من المؤرخين أنه درس بقرطبة ويرى البعض الآخر أنه مر فقط ببلاد الأندلس ثم اتجه إلى الإسكندرية، ثم درس بالجامع الأزهر في القاهرة، وخرج منها إلى دمشق ثم بغداد وسنة (510هـ - 1116م) شرع محمد بن تومرت في رحلته للعودة إلى المغرب.[5]

وقد نظم أتباعه تنظيما خالصا، وقسمهم إلى طبقات ووزع إليهم الوظائف، ثم بدأ مرحلة الجهاد ضد القبائل المغربية، حتى استولى عليها، ثم ضد دولة المرابطين، فافتك بعض

[1] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 20؛ ينظر: محمد بن محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ - 2003م، ج1، ط1، ص: 178.

[2] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 20.

[3] نفسه، ص، ص: 21 – 22.

[4] يتفق المؤرخون الذين ترجموا لابن تومرت أنه ينتسب إلى قبيلة هوغة ولكن الاختلاف كان حول نسبه، فيما إذا كان هذا النسب بربريا خالصا أو منتهيا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، عن ترجمته؛ ينظر: ابن محمد حسن بن علي بن عبد الملك الكتاني بن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990؛ ابن محمد عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المكتبة العصرية، بيروت، 2006م – 1426هـ، ط1، ص: 136.

[5] عبد الله طه السلماني، الدويلات الإسلامية في المغرب، دار الفكر، عمان، 2014-2015م، ط1، ص، ص: 310 – 311.

أجزائها، وبعد وفاته تمكن خلفاؤه من القضاء عليها، وسيطروا على المغربين الأوسط والأقصى، وبلاد الأندلس وبلاد إفريقية[1].

كان حال العلماء والفقهاء وقتئذ حال معادي لتلك الدولة، بل كانوا يقودون الناس للثورة ضدها على اعتبار أنها قامت على أسس باطلة شرعا، منها: زعمهم أن ابن تومرت هو المهدي المنتظر، مدعيا العصمة والإمامة [2]، وكان القاضي عياض من أبرز الأمثلة على ذلك، وخلاصة هذا الموقف أن عبد المؤمن بن علي في أثناء غزوته الكبرى، عرض مبادئ الدعوة الموحدية على أهل السنة فرفضوها بزعامة القاضي عياض ، فلما قدر الله أن يتردى السلطان تاشفين بفرسه في حفرة ويقتل وتنهار بقتله جبهة المرابطين ويفتح عبد المؤمن تلمسان، وهران، وفاس دون عناء كبير أسرع القاضي عياض إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن معلنا قبول الدعوة الموحدية هو وأهل سبتة، وبعد فترة حدث أن انتفض أهل المغرب على عبد المؤمن ورجعوا عن بيعتهم وكان من هؤلاء أهل سبتة بقيادة زعيمهم القاضي عياض، إذ لم تكن البيعة منهم عن رضا وإنما كانت لأجل قوة شوكة الموحدين وغلبتهم وكان ذلك عام اثنين وأربعين وخمسمائة، ثم عاد عن موقفه مرة أخرى، وطلب العفو من عبد المؤمن، هذا موقف عجيب للقاضي عياض أظهره أمام التاريخ بأنه رجل متقلب.[3]

أما فيما يخص النهضة الفكرية والثقافية في هذه الفترة فإن الموحدين لم يجدوا من المغرب بلادا قاحلة من المعارف وبالعكس وجدوها بلغت شأنا عظيما في هذا الميدان وبالرغم من ذلك فإنهم أسسوا المدارس وعمروا المعاهد، وجلبوا كبار العلماء، واقترحوا تدوين الكتب وعقدوا المناظرات، وجمعوا المجامع العلمية المتنوعة، وأسسوا خزائن الكتب وسبقوا إلى التعليم الإجباري، وابتكروا التعليم المجاني.[4]

ووضعوا مناهج التعليم، وإنهم لرغبتهم في نشر العلوم عملوا حتى باللسان البربري وكذا أمروا بترجمة كثير من الكتب المهمة، هذا إلى ما أضفوا على العلم وأهله من جوائز وصلات، بل إنهم شجعوا المعارف بأنفسهم وفي شخصهم، فكان كثير من خلفاء الموحدين

---

[1] الحسين محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 23.

[2] إحسان طه ياسين، **القاضي عياض مفسرا من خلال كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى** ، مجلة آداب الفراهيدي السادس ، 2011، ص: 107.

[3] عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، سحب للطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص: 27.

[4] محمد المنوني، حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، المغرب، 1989، ط1، ص: 14.

وأمرائهم فقهاء، قال السرخسي في رحلته: هؤلاء بنوا عبد المؤمن كلهم فقهاء وعلماء، هذا إلى ما وجد في المغرب على عهدهم من أعلام كبار من الأندلس والقيروان وغيرها، حتى اجتمع في فاس علم القيروان وعلم قرطبة، وصارت مراكش هي الأخرى عاصمة علم حتى عرفت ببغداد المغرب.[1]

وكان عبد المؤمن بن علي من ألمع علماء عصره والتف حوله العلماء والكتاب والشعراء من المغرب والأندلس، فبسط عليهم رعايته وغمرهم بصلاته، وكذلك كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي من أكابر علماء عصره، وكلن أديبا متمكنا وفقيها ومحدثا بارعا شغف بالدراسات الفلسفية وجمع حوله طائفة من أعظم علماء عصره ومفكريه.

وعلى الرغم من تردي الأوضاع السياسية لدولة الموحدين في أواخر أيامها، فإننا نجد أمرائها لا يبتعدون عن أهل العلم والأدب والثقافة، حتى أصبحت النزعة العلمية هي الغالبة على البلاط الموحدي، وشهدت مراكش إنشاء العديد من المساجد منها المسجد الكبير، الذي أنشأه يوسف بن تاشفين، والمسجد الجامع الذي أقامه عبد المؤمن بن علي المعروف بجامع الكتبين، أسسوا المدارس التي ألحقت بالقصور لتخريج الحفاظ.[2]

واتخذ الموحدون مجالس يحضرها الأمراء والعلماء، وكان لها نظام خاص إذ يتصدر الأمير المجلس ثم خطيب الجماعة ثم قاضي الجماعة بمراكش، ثم تبدأ المناقشة والمناظرة حول مسألة علمية يلقيها الأمير أو أحد العلماء فتناقش ثم تختم الجلسة.[3]

[1] محمد المنوني، المرجع السابق، ص: 14.
[2] عبد الله طه السلماني، المرجع السابق، ص: 327.
[3] نفسه، ص: 328.

الفصل الأول

القاضي عياض حياته وعلمه وآثاره

المبحث الأول: التعريف بالقاضي عياض

1 - اسمه ونسبه:

يعد القاضي عياض رحمه الله تعالى، أحد كبار مشاهير أعلام الأمة من العلماء العاملين النجباء، الذين استفاضت المعرفة بعلمهم وفضلهم، واشتهار ذكرهم وسمو مكانتهم، وقد بلغت شهرته آفاق بلاد المغرب والمشرق ولا يبعد أن يقال: أنه من أشعر علماء العرب على الإطلاق، حتى قيل فيه لولا عياض ما عرف المغرب[1]، هذه الكلمة التي اختارتها الأمة المغربية للتعبير عن مكانة عياض في تاريخها.

وهي خلاصة لما تركته حياته الحميدة الحافلة، وعلمه الواسع وسلوكه الحميد.[2]

وقد عنى العلماء المتقدمون بالترجمة له فقد عرفوا به وأشادوا بعلمه وفضله في ثنايا كتب تراجم الحفاظ والمفسرين والفقهاء والأدباء والنحاة والقضاة والشعراء وفي كتب التاريخ العام وتواريخ البلدان.[3]

القاضي عياض: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي، السبتي، المالكي.[4]

هكذا ورد نسبه في المصادر المعتمدة وأولها كتاب التعريف بالقاضي عياض لولده محمد إذ يروي لنا المقري في أزهار الرياض عن الشيخ أبي القاسم بن الملجوم، تلميذ القاضي عياض قوله " اجتاز علينا القاضي عياض عند انصرافه من سبتة[5] قاصدا إلى الحضرة، زائرا لأبي بدارة عشية يوم الاثنين الثامن لرجب سنة ثلاث وأربعين وخمسة مائة، وفي هذه العشية استجزته وسألته عن نسبه، فقال لي: إنما أحفظ " عياض بن موسى بن عياض بن

---

[1] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، دار القلم، دمشق، 1419هـ - 1999م، ص: 27.

[2] عياض بن موسى بن عياض السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح، محمد بن تاريت الطنجي، 1403هـ - 1983م، ط3، ج1، ص: 1.

[3] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 28.

[4] ينظر المصادر التي ترجمت للقاضي عياض: محمد بن عياض، التعريف بالقاضي عياض، تح، محمد بن شريفة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1982م، ص: 2؛ شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح، مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1302هـ - 1939م، ج1، ص: 23؛ إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1412هـ - 1991م، ج12، ص: 225؛ أبو زكريا محي الدين بن مشرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، (د.ت)، ج 2، ص: 43؛ لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح، محمد بن عبد الله عنان، مكنبة الخانجي، القاهرة، 1397هـ - 1988م، ط1، ج4، ص: 270؛ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب العلمية، لبنان، 1416هـ - 1995م، ط1، ج2، ص، ص: 260 – 261.

[5] سبتة: هي بلاد مشهورة في بلاد المغرب. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح، إحسان عباس، مكتبة لبنان، (د.ت)، ص: 303؛ محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار كما كان بثغر سبتة من سن الآثار، تح، عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1403هـ - 1983م، ط2، ص: 6.

عمرون بن موسى بن عياض، وأحفظ أيضا بعد ذلك: محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض ولا أعرف أن محمد هذا هو أبو عياض أو بينهما أحد" وقوله " اجتاز علينا " يعني بمدينة فاس، و قوله " قاصدا إلى الحضرة" يعني مراكش".[1]

وجاء عند ابن الأبار[2] و" الذهبي"[3] وابن خلكان[4] "عمرو" بدل " عمرون".

كما أسقط ابن الأبار وابن خلكان "عبد الله" من نسب عياض، وتبعهم في الاسقاط صاحب كتاب النجوم الزاهرة، ينتسب القاضي عياض إلى يحصب، وهي قبيلة من حمير تنسب إلى يحصب بن مالك، وينسب إليها قوم كثيرون نزل بعضهم بالشام وبعضهم بمصر وبعضهم بالأندلس بعد الفتح، وبهم سميت القلعة المعروفة بيحصب بالأندلس، من باب تسمية المكان بمن نزل فيه".[5]

فالقاضي عياض عربي الأصل و السلالة، ويلتقي في هذا النسب بالإمام مالك بن الأنس إمام دار الهجرة بينهما وشيجة نسب، إضافة إلى أن عياض من أشهر أعيان المذهب المالكي وأكثرهم خدمة للفقه وتصنيفا في رجاله".[6]

وقد كان أجداده في الأندلس، إذ يذكر ابنه محمد في الجزء الذي خصه للتعريف بوالده القاضي عياض: (استقر أجدادنا في القديم بالأندلس، جهة بسيطة، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان لا أدري قبل استقرارهم بالأندلس أم بعد ذلك، ولذلك يقول عبد الله بن حكم:

وكانت لهم بالقيروان مآثر ***** عليها لمحض الحق أوضح برهان

وكان عمرون والد جد أبي رحمه الله على جميعهم رجلا خيرا صالحا من أهل القرآن، حج إحدى عشرة حجة، وانتقل من مدينة فاس إلى مدينة سبتة، بعد دخول ابن عبيد المغرب).[7]

---

[1] أحمد المقري، أزهار الرياض، ج1، ص، ص: 23 – 24.
[2] محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الإمام ابن علي الصدفي، مكتبة الثقافة الدينية، 1420هـ - 2000م، ط1، ص: 289.
[3] الذهبي، المصدر السابق، ج20، ص: 213.
[4] أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج3، (د.ت)، ص: 473.
[5] أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، الأنباه على قبائل الرواة، تح، إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ - 1975م، ص: 132.
[6] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 23.
[7] محمد بن عياض، المصدر السابق، ص، ص: 02 – 03.

وفي مدينة فاس كانت لهم مكانة علمية وأدبية ظاهرة، الأمر الذي جعل لهم نباهة في الذكر والسمعة في تلك الأوساط، فلما دخل حكام الدولة العبيدية بالمغرب، وذهبوا إلى مدينة فاس وأخذوا منها رهنا من خيار بيوتها فكان منهم القاسم بن موسى بن عياض وأخوه عيسى إلى مدينة قرطبة.

فخرج أخوهما عمرون إلى مدينة سبتة ليكون قريبا من قرطبة ويتنسم أخبار إخوته وكان عمرون هذا هو الجد الثاني للقاضي عياض.

ولرحيلهم إلى المغرب واستقرارهم بفاس ثم سبتة ينسب القاضي عياض إلى المغرب في بعض من ترجم له فقيل: عياض بن موسى بن عياض اليحصبي المغربي.[1]

2 - مولده ونشأته:

أجمع المترجمون للقاضي عياض على أن مولده كان في سنة ست وسبعين وأربعمائة من الهجرة وعلى وجه التحديد في منتصف شهر شعبان، وفي هذا الصدد يقول ابن باشكوال (ثم كتب إلي القاضي عياض بخطه يذكر أنه ولد في منتصف شعبان من سنة ست وسبعين وأربعمائة).[2]

وهذا ما أكده ابنه محمد في كتابه التعريف بالقاضي عياض، إذ يقول: (........ ثم ولد لموسى ابنه عياض أبي رحمة الله عليه وعلى جميعهم، فيما رأيت بخطه في النصف الثاني من شعبان عام ستة وسبعين وأربعمائة).[3]

هذا الاتفاق على تحديد مولد القاضي عياض ليس غريبا، فهذا ما يلاقيه الدارس لحياة هذا الإمام، فالكثير من تواريخ ارتحاله ومقامه ودخوله بعض المدن محددة، ويكاد يتم عليها إجماع المترجمين وأهل التاريخ مما يدل على سمو مكانته وسعة شهرته، ولعل اهتمام الناس بالقاضي دعاهم أن يدونوا ذلك في حياته [4]، ومن محاسن الصدق أنه نشأ في كنف أسرة كثيرة الأمجاد والمفاخر، معروفة بالعلم والفضل والخير والإحسان والصلاح والوجاهة.

[1] البشير علي حمد الترابي، القاضي عياض وجهوده في علم الحديث رواية ودراية، دار ابن الحزم للطباعة والنشر، لبنان، 1418هـ - 1997م، ط1، ص، ص: 67 – 68.

[2] أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن باشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1414هـ - 1994م، ج2، ط2، ص: 430.

[3] محمد بن عياض، المصدر السابق، ص: 02.

[4] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 69.

وفي مدينة سبتة المغربية التي لعبت دورا عظيما في تاريخ المغرب والأندلس، والتي تعتبر اليوم أرضا إسبانية تتبع ولاية قادس الإسبانية، وتحتلها إسبانيا منذ أربعة قرون، كانت مسقط رأس لجمهرة كبيرة من علماء المغرب والأندلس [1]، فوجد في بيئته مقومات التربية الإسلامية المنضبطة والصالحة الخيرة، وهي العلم والجهاد والعبادة.

ففي مجال العلم كانت مدينة سبتة تزخر بالعلماء في مختلف التخصصات من أهلها والوافدين إليها والعابرين بها، وتمثل مركزا علميا متميزا يلتقي فيه حملة العلم من أهل المغرب والمشرق، فهي المعبر الوحيد إلى الأندلس وكان ذلك في ظل دولة تحترم العلم وتجل أهله وتقدمهم وتكرمهم، وتقف عند أحكامهم ومشوراتهم فأقبل على حفظ كتاب الله تعالى حتى أتمه في سن التمييز، وأكثر من مجالسة العلماء حتى برع في مختلف فنون العلم.[2]

وفي مجال الجهاد نلاحظ أن طفولة عياض تزامنت مع زحف جيوش المرابطين لتوطيد سلطانهم وقمع الثائرين عليهم، فتعود عياض الطفل على رؤية الجند وسماع قعقعة السلاح، وصار ذلك مألوفا لديه مع ارتباط ذلك بهدف عظيم هو إرساء قواعد الدين، وتوطين سلطانهم العظيم، فكان قد قاد بلده بعد ذلك في حروبها ضد الموحدين حماية لعقيدة أهل السنة والجماعة.

وفي مجال العبادة نجد عياض قد تربى في مسجد أسرته، ملتزما بالصلاة فيه، متذكرا آخرته بتكرار النظر والتأمل في المقبرة الملحقة بالمسجد من وقف جده الأعلى عمرون، فلا عجب أن كان بعد ذلك عاملا مجتهدا، صواما قواما، يقوم ثلث الليل الآخر بجزء من القرآن، لم يترك ذلك قط على أية حال حتى يغلب عليه متدينا ومتواضعا.[3]

---

[1] محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1390هـ - 1970م، ط 2، ص: 306.
[2] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص، ص: 36 – 37.
[3] نفسه، ص، ص: 37 – 38.

المبحث الثاني: مكانته العلمية

1 - رحلته في طلب العلم:

عندما قارب عياض الثلاثين من عمره كان قد برع في جملة من العلوم الشرعية وأصبح عالما مشهورا وبان علمه وفضله للعامة والخاصة.[1]

ولذلك فإنه لما عزم على الرحلة إلى الأندلس للأخذ عمن لم يلقى من علمائها وجد معارضة من أحد كبار شيوخه بأن من سيرحل إليه عياض هو أحوج إلى عياض من في العلم من احتياج عياض له، كما أن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين نفسه قد اهتم برحلة عياض، واتخذ بعض التدابير لإنجاحها، فقد كتب رسالة بهذا الخصوص إلى قاضي قرطبة أبان فيها فضل عياض وما وصل إليه من التقدم في العلوم في تلك الفترة المبكرة من حياته.[2]

وقد بدأ عياض رحلته إلى الأندلس في منتصف جمادى الأولى سنة 507هـ، فوصل قرطبة في مستهل جمادى الآخرة[3]، وكانت قرطبة هي حاضرة الأندلس الأولى تعج بالعلماء وطلاب العلم، لذلك كانت وجهته الأولى، إذ يقول النباهي في كتابه تاريخ قضاة الأندلس (قدم الأندلس طالبا العلم فأخذ بقرطبة عن القاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وابن أبي الحسين سراج وعن عبد الملك بن سراج الغساني وما رواه، وأخذ بالشرق (أي شرق الأندلس)، عن القاضي أبي حسن بن محمد الصدفي كثيرا وعن غيره).[4]

وهذا ما يتوافق مع أقوال ولده محمد، إذ عنى بلقاء الشيوخ، والأخذ عنهم وجمع من الحديث كثيرا وله عناية كبيرة له واهتمام بحمله وتقييده وهو من أهل اليقين في العلم والذكاء واليقظة والفهم.

ويبدو أن عياض قد خطط لرحلته مسبقا، وانتقى شيوخه فيها قبل سفره، ولذلك فإنه كان يقصد بغيته مباشرة وبأصول جاهزة في كثير من الأحيان فلم تتجاوز رحلته ثلاثة عشر شهرا، تتلمذ من خلالها على ست وثلاثين من أجلة علماء الأندلس في أكبر مدنها وحواضرها العلمية، وبخاصة قرطبة حاضرة الأندلس، وإشبيلية ومرسية.[5]

---

[1] البشير على حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 82.
[2] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 73.
[3] محمد بن عياض، المصدر السابق، ص: 06.
[4] أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تح لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1403هـ - 1983م، ط5، ص: 101.
[5] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 76.

ويبدو أن الفترة التي قضاها بقرطبة كان لها أثر واضح في تكوين شخصيته وطيب الأثر على نفسه[1]، فأنشدها قائلا:

أقول وقد جاء جد ارتحالي وغددت ***** حداتي وزمت للفراق ركائبي[2]

وقد غمضت من كثرة الدمع مقلتي ***** وصارت هواء من فؤادي ترائبي

ولم تبق إلا وقفة سيتحثها ***** وداعي للأحباب لا للحبائب

وفي الله جيران بقرطبة العلي ***** وسقى رباها .... السواكب

وحيا زمانا بينهم قد ألفته ***** طليق المحيا ...... الجوانب

إخواننا بالله فيها تذكروا ***** معاهد جار أو مودة صاحب

غدون بهم من برهم واحتفائهم ***** كأني في أهلي أقاربي[3]

غادر أبو الفضل قرطبة، اتجه إلى مرسية، يقول محمد في التعريف بوالده (ثم خرج منها إلى مرسية يوم الإثنين لخمس بقين من المحرم سنة ثمان من التاريخ، فوصل مرسية يوم الثلاثاء الثالث من صفر بعده، فوجد أبا علي الحافظ الحسين بن محمد الصدفي أبي علي مختفيا، فقام بقية صفر وربيع الأول يقابل كتبه أثناء ذلك بأصول الحافظ أبي علي إلى أن وصل كتاب قاضي الجماعة أبي محمد بن منصور بحل القاضي أبي علي عن القضاء، وحصل كتابه لأبي رحمه الله على جميعهم معلما له بذلك، إذ كان يكرم عليه علم برحلته، فخرج أبو علي من اختفائه، وجلس للتسميع فسمع عليه كثيرا ولازمه وكان له به اختصاص، فحصل له على سموع كثير في مدة يسيرة.[4]

ومما يستمد من المراجع، وخصوصا ما كتبه محمد بن تاويت الطنجي في التعليق على رحلة عياض إلى الأندلس في طلب العلم، أنه لم يرحل إلى الأندلس طالبا للعلم بالمعنى العادي المتعارف عليه وإنما حل إليها عالما، يقصد إلى لقاء شيوخ العلم وأعلامه للتعرف عليهم من جهة ويقصد من جهة أخرى إلى التأكد من سلامة نهجه الغلم سواء في الرواية أو التفكير.[5]

---

[1] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 85.

[2] ابن نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح حسين يوسف خربوش، مكتبة المنارة، الأردن، 1409هـ - 1989م، ط1، ص: 689.

[3] ابن خاقان، المصدر السابق، ص: 689.

[4] محمد بن عياض، المصدر السابق، ص، ص: 7 – 8.

[5] إدريس ساعي، النقد اللغوي والبلاغي عند القاضي عياض في كتابه بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، رسالة ماجستير في اللغة والأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، " 1434 – 1435هـ/2013 – 2014م"، ص: 29.

والقاضي عياض لم يرحل للمشرق، ولكنه تتلمذ على أجل من رحل إلى الرحلات الواسعة للمشرق[1]، وعلى رأسه هؤلاء شيخه الحافظ الصدفي الذي رحل إلى مكة والبصرة، وبغداد، ومصر، وسمع وجمع بكل هذه المدن على أعلامها، ورحلات القاضي عياض التي ذكرناها هذه كانت علمية بحتة أي من أجل طلب العلم والاستزادة منه، والتخصص في السماع.

وكان القاضي إذا لم تكفه ظروفه من لقاء شيخ رغب في السماع منه، كاتبه يطلب إجازته، والإجازة من طرة الأخذ الصحيحة.

ومن رحلات القاضي عياض العلمية التي غفل عنها الكثير من المترجمين له، رحلته إلى فاس، فقد غفل عنها ابنه وذكرها المقري في أزهار الرياض [2]، فقال: "أن القاضي عياض رحمه الله، رضى الله عنه، لما دخل الحضرة الفاسية حاطها الله، نزل بدار ابن الفرديس التغلبي بزنقة حجامة، حسبما أشار إليه ابن الأحمر" [3]، وبالجملة فإن القاضي عياض رحل في طلب العلم كثيرا وفي إقامته كان طالبا ومعلما، شغوفا بالعلم محترما لشيوخه وطلبته مما أكد تلك المكانة العلمية الفذة.[4]

عاد عياض من رحلته الأندلسية قبسا من النوريضي، وهينا عذبا ومنهلا فياضا من العلم لا يلحقه نضوب، وصوتا عاليا للحق ينادي، مرشدا وحاكما، فيسمع النداء، وطاقة هائلة من الإيمان والثبات والخلق، وإلى هذا جميعا إحساس واع بنفسه وببلده وبالمكانة التي تهيأت له، بما ورثه عن سلفه وبما أفاده بسعيه، وتقدير بالمسؤوليات الجسام التي تفرضها عليه تقاليد هذه المكانة من إرشاد وهداية، وتوجيه وتنوير.

وصل عياض سبتة ليلة السبت السابع من جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسمائة (508هـ)، وأجلس أهلها للمناظرة عليه في المدونة ابن اثنين وثلاثين عاما [5]، أو ينيف عليها، والجلوس والجلوس في المناظرة تشريف علمي، لا يصل إليه إلا الشيوخ الكبار، ممن رسخت أقدامهم في العلم والمناظرة في المدونة كان تقليديا معروف عند فقهاء المالكية.

---

[1] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 121.
[2] نفسه، ص: 121.
[3] أحمد المقري، أزهار الرياض، ج1، ص: 29.
[4] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 122.
[5] محمد بن عياض، المصدر السابق، ص: 10.

ثم أجلس للشورى، والجلوس للشورى مرحلة أولى في سلم القضاء، وقد كانت العادة أن يتخذ القاضي أربعة مستشارين، وكانوا يخضعون لتنظيم خاص.[1]

ثم ولي عياض منصب القضاء في سبتة عام خمسة عشر وخمسمائة (515هـ)، لثلاث بقين من الصفر وكان عمره تسعة وثلاثين عاما، فسار فيها حسن السيرة، محمود الطريقة، مشكور الخلة.[2]

ولم يكن منصب القضاء في عصره يقف عند إقامة الحدود، والفصل في المنازعات بل كان يعداه إلى تعيين أئمة المساجد وبناء البنايات التي يرى أنها ضرورية لحماية البلد.

وعلى الرغم من المهام العديدة التي كانت مسندة إلى القضاء، بل فإن ذلك لم يمنع القاضي عياض من أن يقوم بالتدريس، وذلك إلى جانب ما كان يقوم به في مجال التأليف والتصنيف.

ويبدو أن شهرة القاضي عياض في هذه المرحلة كانت قد بلغت إلى المشرق العربي، إذ أخذت الإجازات تتوارد عليه من كل بلاد المغرب والإسكندرية وغيرها من بلاد المشرق.

ومن المؤكد أن مجالس عياض كانت تجمع باستمرار العلماء والشعراء، ومنهم من كان يأتي خصيصا للاتصال به.[3]

ظل عياض قاضي سبتة ما يقارب ست عشرة سنة، بلغت شهرته بصفته عالما كبيرا وقاضيا نزيها، إلى غاية وصول كتاب تاشفين إلى القاضي عياض بنقله إلى غرناطة في أول يوم من صفر إحدى وثلاثين وخمسمائة، ولم يتأخر عن الالتحاق بمقر عمله الجديد إذ وصل إلى غرناطة يوم الخميس، لخمس بقين من ربيع الآخر عام واحد وثلاثين وخمسمائة (531هـ)، وكان اليوم الذي دخل فيه القاضي عياض غرناطة يوما مشهودا فقد وصفه أبو زيد عبد الرحمان الغرناطي أحد تلاميذه، فقال: (لما ورد علينا القاضي عياض خرج الناس للقائه، وبر زواله تبريرا ما رأيته لأمير مؤمر مثله، وخرجت أعيان البلد الذي خرجوا إليه ركابا تبعا على مائتي راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة) [4]، "وخرجت مع أبي رحمه الله تعالى في جملة من خرج، فلقينا شخصا بادي السيادة، منبئا عن اكتساب المعالي والإفادة".[5]

---

[1] أحمد جمال العمري، السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض، دار المعارف، 1988، ص، ص: 53 – 54.
[2] محمد بن عياض، المصدر السابق، ص: 10.
[3] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص، ص: 54 – 55.
[4] محمد بن عياض، المصدر السابق، ص: 11.
[5] أحمد المقري، أزهار الرياض ، ج3، ص، ص: 10 – 11.

سار عياض في قضائه بغرناطة على المعتاد من سيرته، ولكنه على الرغم من ذلك أو سبب ذلك كما يقول ولده صرفه تاشفين عن قضاء غرناطة لما ضاق به ذرعا [1]، إذ كان يصد أصحابه من الباطل، والواقع أنه ليس غريبا عن فقهاء دولة المرابطين، أن يقفوا في وجه الأمراء يصدونهم عن الباطل، بل أن علمهم هذا كان يدخل في جميع مهماتهم التي كانت تشمل التوجيه والمراقبة والنقد.[2]

وعلى العموم فإن القاضي عياض ولي القضاء مرارا في سبتة أولا، ثم في غرناطة ثم في سبتة مرة أخرى، ثم بقرية صغيرة ببادية تادلا في الشمال الغربي من مراكش واسم القرية "داي".[3]

2 - شيوخه:

أخذ رحمة الله عليه عن شيوخ كثيرين، واجتمع له ما بين من سمع له وأجاز له نحو مائة شيخ[4]، ألف فيها فهرسته التي سماها (الغنية)، ومما جاء فيما بعد الحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

(أيها الراغبون في تعيين رواياتي وإجازة مسموعاتي ومجموعاتي، فقد تعين بحكم إلحاحكم علي، ومدكم أيدي الرغبات إلي أن أنص لكم من ذلك على عيون وأنص أوراقي هذه بما لعله يفي بالمضمون، وأحيل على فهارس الشيوخ على العموم في سائر أنواع العلوم، وأسمى أشياخي الذين أخذت عنهم قراءة وسماعا، ومناولة وإجازة وممن كتب إلي لم ألقه وذكرت من خبر كل واحد منهم ما يعطى الحال وفقه، بطرق من الاختصار بحكم ما أدت إليه الحال من الرحلة ......، وذكرت أثناء ذلك أسماء جملة ممن لقيتهم، وجالستهم وذاكرتهم ولم أرو عنهم، أو سمعت منهم اليسير إما تقاطع قطع أو لسبب منع، أولا فهم لم يكونوا أصحاب رواية أو أهل إتقان لما رووا أو دراية).[5]

ويمكننا تقسيم شيوخ القاضي عياض إلى أربعة طوائف:

الأولى: شيوخ لقيهم وصاحبهم وأخذ عنهم الكثير، وقد تأثر بهم مثل: الحافظ أبي علي الصدفي، ومحمد بن عيسى، وابن عتاب.

---

[1] أحمد المقري، أزهار الرياض ، ج3، ص: 10.
[2] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 57.
[3] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 80.
[4] إدريس ساعي، المرجع السابق، ص: 34.
[5] عياض بن موسى بن عياض السبتي، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تح: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1402هـ - 1982م، ط1، ص، ص: 25 – 26.

الثانية: شيوخ لقيهم وأخذ عنهم القليل وأجازوه فيما لم يسمعه منهم وهؤلاء مثل شيخه ابن العربي.

الثالثة: شيوخ لقيهم وأخذ عنهم إجازة فقط مثل شيخه الحافظ الحسين بن محمد الغساني.

الرابعة: شيوخ لم يلقهم، ولكنهم أجازوه مكاتبة مثل أبي الطاهر السلفي الذي تبادل معه الإجازة، ونحن في هذا البحث سنحاول ترجمة بعضا من شيوخه وسنبين أخذ القاضي عنهم، وأثرهم في تكوينه العلمي.[1]

- **القاضي حافظ أبو علي الحسين بن محمد بن فيره بن حيون الصدفي:**

أندلسي الأصل من أهل سرقسطة من قرية تعرف "بمنزلة محمود" بالثغر الأعلى من سرقسطة، وقد ولد الصدفي في سنة 445هـ.

وقد نشأ في سرقسطة وأخذ من علمائها، وله رحلة واسعة إلى المشرق، سمع بإفريقية ومصر ومكة وبغداد وغيرها، واتبعت روايته عن الشيوخ، فألف عياضا له فهرسة سماها المعجم في شيوخ الصدفي، كما أن ابن الأبار ألف المعجم في أصحاب الصدفي أي تلاميذه.[2]

وصلة القاضي عياض بالصدفي بدأت بزيارة الصدفي لسبتة، وكان القاضي عياض في سن الحداثة، وتكررت زيارة الصدفي لسبتة، وفي الزيارتين لم يشأ الله لعياض أن يأخذ عنه ولكنه على كل حال كون فكرة عن شيخه المرتقب.

وكبر القاضي عياض وأخذ العلوم وبرز فيها وأصبح ذا صيت، وهم بالرحلة لتحقيق أصول العلم والاستزادة منه، فرحل ولقى الحفاظ بقرطبة وانصرف منها قاصدا الصدفي بالمرية، فوجده في اختفائه لنبذه خطة القضاء، فانتظر مع المنتظرين حتى خرج القاضي من اختفائه، فلزمه وأخذ عنه كثيرا من الأصول والأمهات في الحديث ورجاله في المتن والسند.

فمما أخذه عنه الصحيحان والجامع للترمذي والشهاب للقضاعي ومشتبه النسبة لعبد الغني والناسخ والمنسوخ لهبة الله، وشمائل الرسول صلى الله عليه وسلم للإمام الترمذي

[1] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 126.

[2] القاضي عياض، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، ص: 129؛ أحمد المقري، أزهار الرياض ، ج 3، ص: 151؛ ينظر: الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، المصدر السابق، ص: 100.

والاستدراكات على البخاري ومسلم للدارقطني، وكتاب التاريخ للبخاري، رياضة المتعلمين لأبي نعيم الحافظ، وشيوخ البخاري لابن عدي وغير ذلك.[1]

- **شيخه عبد الرحمان بن عتاب:**

من أهل قرطبة، ولد سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وكان أبوه محمد بن عتاب محط رحال طلاب الفقه والحديث في قرطبة.

نشأ عبد الرحمان في كنف والده وأخذ عنه أكثر ما عنده، كما أجازه جماعة من مقدمي الشيوخ منهم القاضي أبو عبد الله بن سماح الغافقي، وأبو عمر بن عبد البر النمري وغيرهم.... وقد قرأ القرآن وجوده وأصبح من أشد الناس حفظا وإتقانا، أما الفقه فقد درسه عن أبيه وكان صدرا في الفقه والفتيا، حيث تبوأ ابن عتاب مكانة أبيه في قرطبة في الإسناد والفتيا، وقد مد الله في عمره فعاش حتى أصبح أكبر شيوخ قرطبة.

ولما رحل القاضي عياض إلى قرطبة في سنة 507 هـ وجد من أكابر العلماء وعلى رأسهم الحافظ بن عتاب فتتلمذ عليه، وأخذ عنه الفقه والحديث، فمما قرأه عليه الجامع الصحيح لأبي عبد الله بن إسماعيل البخاري والملخص للقابسي، والموطأ برواية يحيى بن يحيى الأندلسي وبرواية يحيى بن بكير.[2]

- **شيخه ابن رشد:**

إنه الفقيه القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد المالكي زعيم الفقهاء في وقته بالمغرب والأندلس، المعترف له بصحة الفطرة وجودة التأليف، ودقة الفقه وهو إمام المسجد الجامع بقرطبة، وكان مولده في شوال سنة خمسين وأربعمائة، كان أبو الوليد فقيها عالما مقدما في الفقه حافظا له، عارفا بالفتوة على مذهب الإمام مالك وأصحابه.

ألف ابن رشد كثيرا من المصنفات، وكان الفقه غالبا في تواليفه، فقد ألف كتابه المعروف بكتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل.[3]

هذا وقد جالس القاضي عياض ابن رشد وكثيرا وساءله، واستفاد منه، فقد سمع منه بعض كتابه في اختصار المبسوطة وناوله بعضه، وأجازه ابن رشد في سائر روايته.

[1] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 132 – 133.

[2] نفسه، ص: 134؛ ينظر: محمد عبد الحق بن عطية، فهرس ابن عطية، تح: محمد أبو الأجفان، محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ط2، ص: 106؛ أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1410هـ - 1989م، ج2، ص: 990.

[3] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 135 – 136.

شيخه أبو بكر العربي:

هو القاضي الحافظ الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافيري، الإشبيلي موطنا والمالكي مذهبا.

وقد كان مولد أبي بكر بن العربي في ليلة الخميس لثمان بقين من شهر شعبان سنة 468هـ، ونشأ في بيت أبيه وتأدب وأخذ القرآن والقراءات.

يعد القاضي أبو بكر من المكثرين في التأليف، ففي تفسير القرآن له ثلاثة تفاسير هي: أنوار الفجر وأحكام القرآن، والقانون في تفسير القرآن، وله أيضا الناسخ والمنسوخ.

وفي الحديث ألف عارضة الأحوزي الذي شرح فيه جامع الترمذي شرحا رائعا من خيرة شروح جامع الترمذي، وألف القبسي على مؤطأ الإمام مالك ابن أنس، وله على الموطأ شرح آخر اسمه المسالك في شرح موطأ مالك.[1]

شيخه محمد بن عيسى التميمي:

هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن عيسى بن حسين التميمي، يقول عنه القاضي عياض أنه كان كثير الكتب حافظا عارفا بالفقه، من أعقل أهل زمانه وأفضلهم كامل المروءة وبعيد الصيت عن الخاصة والعامة.

يذكر القاضي عياض أنه لازمه كثيرا للمناظرة في المدونة والموطأ وسماع المصنفات فقرأت وسمعت عليه بقراءة غير كثيرا وأجازني جميع روايته.[2]

الشيخ أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن طريف بن سعد:

كان أديبا نحويا لغويا كاتبا بليغا وأحد شيوخ ابن باشكوال، [3] حيث يذكر القاضي عياض أنه التقى به بقرطبة وأخبره بكتاب ساطع البرهان تأليف ابن مالك وكتاب المفتاح في القراءات تأليف ابن عبد الوهاب وأجازه جميع روايته وكانت وفاته رحمه الله سنة 520هـ.[4]

---

[1] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 138؛ ينظر: ابن خاقان، المصدر السابق، ص: 622.

[2] القاضي عياض، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، ص، ص: 27 – 28.

[3] ابن الحسن علي بن بسام الشتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 1417هـ - 1997م، ص: 809.

[4] القاضي عياض، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، ص، ص: 15 – 16.

3 - تلامذته:

من أعظم آثار القاضي عياض (رحمه الله) كثرة تلامذته من الأندلسيين والمغاربة، بحيث لا نكاد نجد أحدا من أهل الطبقة التي تلت طبقة عياض في تلك الديار إلا وقد تتلمذ عليه وأخذ عنه العلم، وكفاه بذلك شرفا وفخرا، ونحن سنحاول ذكر عشرة من مشاهيرهم تبنيها على فضل عياض حيث تخرج على يده أمثال هؤلاء الأئمة الذين انتفعت بهم الأمة.

- **إبراهيم بن يوسف المري المعروف بابن قرقول (ت 569هـ):** هو محدث، واسع الرواية فقيه لغوي، أصله من الأندلس، ثم انتقل إلى فاس وبها كانت وفاته، ومن مظاهر تأثره بشيخه عياض أنه ألف على المشارق كتابا سماه: "مطالع الأنوار".[1]
- **أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمان الصقر الأنصاري، الخزرجي:** من سرقسطة، كان محدثا ضابطا وحافظا مجودا عارفا بالفقه والأصول، مقدما في علم الكلام، ولد سنة 502هـ، وتوفي رحمة الله عليه سنة 559هـ.[2]
- **أبو عبد الله محمد بن حسن بن عطية السبتي، المعروف بابن غازي:** روى عن القاضي عياض واختص به ولازمه، وسمع منه جل روايته وتآليفه.[3]
- **أحمد بن عبد الرحمان بن مضاء اللخمي:** هو أحمد بن عبد الرحمان بن محمد بن مضاء بن مهند بن عمير اللخمي، ويكنى أبا العباس، ولد بقرطبة سنة إحدى عشر وخمسمائة وقد قرأ القرآن، وأخذ عن القاضي عياض، حيث لقيه بسبتة وأكثر عن أبي بكر بن العربي وعبد الحق بن عطية وكلهم أجازوه.

توفي ابن مضاء في جمادى الأولى سنة 593هـ، وقد زاد عمره على الثمانين قضاها في طلب العلم ونشره، رحمه الله تعالى.[4]

- **عبد الرحمان بن محمد الأنصاري، المعروف بابن خبيش (ت 583هـ):** أحد أئمة العلم في وقته بالأندلس، عالم بالقراءات وعلوم القرآن، بصير بالحديث، لغوي: متفنن في العلوم، أجاز له عياض رواياته ومؤلفاه، صنف كتبا بديعة منها كتاب المغازي.[5]

---

[1] الحسين بن محمد شواط، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم، دار ابن عفان للشنر والتوزيع، 1414هـ - 1993م، ط1، ص: 151.

[2] صالح بن عثمان بن محمد العمري، إجماعات القاضي عياض في الفقه الإسلامي جمعا وتوثيقا ودراسة، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1418هـ - 1998م، ص: 27.

[3] نفسه، ص: 27.

[4] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 169 – 170.

[5] الحسين بن محمد شوا، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص، ص: 241 – 242.

خلف بن عبد الملك بن باشكوال (ت 579هـ):

إمام حافظ، محدث، فقيه، أصولي، مؤرخ، جمع بين علوم الرواية والدراية، سمع من القاضي بقرطبة، ثم كتب إليه القاضي من سبتة مجيزا بمروياته ومؤلفاته، له تصانيف بديعة منها: (كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وقضاتهم وأدبائهم)، وكتاب معجم شيوخه، و(الغوامض والمبهمات)، و(رواة الموطأ عن مالك) وغيرها.[1]

محمد بن خير الأموي، أبو بكر الإشبيلي (ت 575هـ):

إمام فاضل مقرئ، محدث، واسع الرواية، أديب، لغوي، مشارك في سائر العلوم، وهو أحد أئمة وقته، أخذ عن القاضي عياض سماعا وإجازة.[2]

عبد الرحمان بن قصير الغرناطي:

اسمه عبد الرحمان بن أحمد بن أحمد بن محمد الأزدي، من أهل غرناطة يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن القصير.

كان ابن لقصير فقهيا صاحب شورى، جليل القدر، بارعا في الأدب، صاحب رواية ودراية في الحديث انتقل إلى الأندلس وأخذ الناس عنه بمرسية وغيرها، حيث ألف ابن القصير عدة كتب، فقد جمع مناقب من أدركه من أهل عصره واختصر كتاب "الحيل" لابن خاقان، وألف خطبا ورسائل ومقامات، وأما صلته بالقاضي عياض وتلمذته عليه فقد كانت أيام قضاء القاضي بغرناطة، فقد أعجب به ابن القصير وأخذ عنه الكثير.[3]

عبد الله بن أحمد العبدري، المعروف بابن أبي الرجال (ت 566هـ):

محدث، حافظ، مقرئ، فقيه، من كبار علماء الأندلس، له تآليف مفيدة منها: (شرح صحيح مسلم)، وقد توفي قبل إتمامه، و(شرح على رسالة ابن أبي زيد القيرواني) في الفقه المالكي.[4]

محمد بن حسن بن عطية، المعروف بابن غازي:

فقيه محقق متقن، شاعر، أديب، من أهل سبتة، وكان له اختصاص بعياض حيث لازمه كثيرا، وسمع منه، وقرأ عليه، وتحمل عنه معظم روايته ومؤلفاته، ثم تصدر بعد ذلك للتدريس، وانتفع به أهل سبتة.

[1] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 241.
[2] ــــــــــــــ، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض في إكمال العلم بفوائد مسلم، ص: 153.
[3] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 171.
[4] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 232.

ومما زاد في كثرة تلاميذ عياض أن الأوضاع في الأندلس بدأت تتغير، وبدأ كثير من أهل العلم وعامة الناس يرتحلون من الأندلس إلى المغرب، ليمروا في طريقهم بسبتة فيلتقوا بالقاضي عياض ويأخذون عنه العلم، ثم يقومون بدورهم في إثراء الحياة العلمية بالمغرب وإفريقية.[1]

المبحث الثالث: وفاته وآثاره

1 - وفاته:

بعد حياة حافلة بالعطاء والخير النافع، انتقل عياض إلى جوار ربه عز وجل، وتلك نهاية كل مخلوق، ولكن شتان من يكون له بعد وفاته الذكر الحسن والأثر الطيب، كما هو حال أبي الفضل، وبين من يضرب ذكره وتطوى صفحة أخباره، أو يذكر بسوء خصال وفساد الخلال، نعوذ بالله من ذلك.

عاش عياض (رحمه الله) عفيفا صينا، مرضي الخلال، محمود الأقوال والأفعال، خدم علوم الشريعة تدريسا وتصنيفا، واستقام عليها، ودافع عن عقيدته بقوة وصلابة، ولم يخشى في الله لومة لائم فكان إن امتحن لأجل ذلك فثبته الله في هذا الابتلاء، وفارق الدنيا على ما كان عليه من الشموخ والقوة في دين الله.[2]

لقد ذكرنا سابقا أن عياضا رحمه الله تعالى وعلماء المغرب لم يروضا بالدخول تحت طاعة دولة الموحدين، لما لها من المخالفات الشرعية البينة في مجال العقيدة والأحكام، مثل زعم ابن تومرت أنه المهدي المنتظر وإدعاؤه العصمة والعلم بالمغيبات، وغير ذلك من الموبقات.

فتزعم القاضي (رحمه الله) أهل سبتة وصد الموحدين عنها، ثم دخلوها بعد ذلك عنوة فأطاعهم كرها، ثم ثار عليهم لما سنحت الفرصة لذلك، ولما أدرك هو وأعيان أهل سبتة فشل هذه الثورة أرسلوا وفدا بزعامة عياض إلى أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي.[3]

فعفا عبد المؤمن عن أهل سبتة، ولكن أمر القاضي عياض من أن يلازمه ولا يبارح مراكش، ولم يكن هذا الإجراء هو كل عقاب القاضي عياض الذي لقيه من عبد المؤمن، ولكن العقاب هو عندما أرسله قاضيا إلى قرية (داي) وهي رقعة منسية مهملة.[4]

---

[1] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 243.
[2] نفسه، ص: 281.
[3] نفسه، ص: 282.
[4] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 93.

ويبدو أن هذا الأمر لم يشف غليل الموحدين، فاستدعاه أميرهم إلى مراكش لمزيد من الإيذاء ولتدبير خطة للتخلص منه فيما يبدو، فقد أمره بالخروج معه إلى غزوة دُكالة، ولكنه مرض في الطريق فعاد إلى مراكش حيث توفي بعد حوالي أسبوع.

وقد اتفقت المصادر على أن عياض (رحمه الله) قد توفي مغربا عن سبتة سنة 544هـ، وذلك يوم الجمعة السابع من جمادى الآخرة، وأنه دفن في مدينة مراكش بالمغرب الأقصى، ولكن الاختلاف كان حول سبب وفاته [1]، إذ تعددت آراء الباحثين وتباينت فيها أفكارهم وآراؤهم، وسنحاول إيرادها فيما يلي:

- اعتلاله ومرضه خارج مراكش ونقله إليها مريضا فمكث بها ثمانية أيام وتوفي رحمه الله[2]، قال ابنه محمد "خرج القاضي عياض مع عبد المؤمن بن علي إلى غزوة دُكالة، فمرض بعد مسير مرحلة فأذن له بالرجوع، فأقام بها مريضا نحوا من ثانية أيام ثم مات عفا الله عنه [3]، وهذا السبب هو الأقرب إلى الصواب بحكم أنه جاء من قبل أقرب الناس إليه".

- وقيل أنه مات في الحمام يوم دعا عليه الإمام الغزالي لما بلغه أن أفتى بحرق كتابه "إحياء علوم الدين" [4]، وهذا الخبر باطل يتناقض مع حقائق التاريخ الثابتة، فإن الغزالي رحمه الله توفي سنة 505هـ، وتوفي عياض سنة 544هـ، بالإضافة إلى ما تقدم فإن عياضا لم يشارك في فتوى إحراق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي.[5]

- أن المهدي بن تومرت الموحدي أمر بقتله بعد أن ادعى عليه أهل بلده أن يهودي لأنه كان يخرج يوم السبت لاشتغاله بتصنيف كتاب الشفا، وهذا أيضا لا أصل له، كون أن القاضي عياض صنف كتابه الشفا قبل ذلك بكثير، فقد كان يسمعه لتلامذته في غرناطة أيام قضائه، وأيضا فإن المهدي بن تومرت توفي قبله بنحو أربعة وعشرين عاما.[6]

---

[1] الحسين محمد بن الشواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص، ص: 283 – 284.

[2] حكيم باشا، القاضي عياض وجهوده العقدية في مبحث الإلهيات والنبوات، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 1430 – 1431هـ/2009 – 2010م، ص: 51.

[3] محمد بن عياض، المصدر السابق، ص: 13.

[4] السيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي مرتضي، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، مؤسسة التاريخ العربي، لبنان، 1414هـ - 1994م، ج1، ص: 27.

[5] حسين بن محمد الشواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 274.

[6] حكيم باشا، المرجع السابق، ص: 52.

وقيل أيضا أنه توفي مسموما، إذ يذكر ابن فرحون في الديباج "أنه توفي في شهر جمادى الأخيرة وقيل في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقيل أنه مات مسموما سمه يهودي، ودفن رحمة الله[1] عليه بباب إيلان داخل المدينة".[2]

ومن خلال ما سبق يتبين أن أبا الفضل مات ميتة طبيعية، كما ذكر ابنه وهو أقرب الناس إليه وأدرى بخبره، وهذا القول اعتمده أغلب الذين ترجموا له.

ومع هذا يرى الدكتور الحسين بن محمد الشواط أن الموحدين قد دسوا له السم أثناء رحلة (دُكالة) وذلك سبب مرضه، فأعادوه إلى مراكش حيث توفي بسبب السم، أو يكون خنق أثناء مرضه ذلك، فقد قال صاحب المرقبة العليا، "فجرت عليهما، يريد عياضا [3] وابن العربي، وأصابتهما فتن ومات كل واحد منهما مغربا عن أوطانه، محمولا عليه من سلطانه، وقال بعضهم: سم ابن العربي وخنق اليحصبي".

رحم الله هذا الإمام الحافظ العلامة العامل المجاهد، وأجزل مثوبته، وأسكنه الفردوس الأعلى من جنته.[4]

2- آثاره:

أهم مؤلفاته:

كانت حياة القاضي عياض موزعة بين القضاء والتأليف والتدريس، على الرغم من أن أعباء القضاء كانت تأخذ وقتا كبيرا في حياته، إلا أنه ترك عددا كبيرا من المؤلفات والمصنفات مستغلا في كتابتها الأوقات القليلة، التي كان يخلو فيها إلى نفسه، ولعله أفاد كثيرا من تلك الفترة التي ترك فيها القضاء والتي تمتد من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة إلى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة للهجرة.

وقد أصاب كتب القاضي عياض ما أصاب حياته من اضطراب وقلق، ونتج عن ذلك فقدان عدد كبير منها، كما وقع اختلاف في تحديدها، وتحديد أسماء بعض منها فهي (19) تسعة عشر عند ابنه في التعريف بالقاضي عياض، وهي فوق الثلاثين عند ابن تاويت الطنجي وصل إلينا بعضها، ولكن أكثرها لم يصلنا، والباحث المدقق في هذه المؤلفات

---

[1] إدريس ساعي، المرجع السابق، ص: 39.

[2] إيلان: موقع قرب مدينة مراكش بالمغرب؛ ينظر: شهاب الدين بن عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ - 1977م، ج1، ص: 292.

[3] الحسين بن محمد الشواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 274.

[4] نفسه، ص: 274.

والمصنفات، يجد أنها تدور في عدة مجالات: مجال الحديث، ومجال الفقه، ومجال السيرة النبوية، ومجال التاريخ، الأدب وغير ذلك من الأغراض والموضوعات.[1]

ونحن هنا سنحاول ذكر أهم مؤلفاته بحكم أن المجال لا يسعنا لذكر جميع مؤلفاته.

أولا: كتب الحديث

كان القاضي عياض كما ذكرنا إمام وقته في الحديث وعلومه، وجمع من الحديث كثيرا، وكان له عناية كثيرة به، مهتما بجمعه وتقييده، من ذلك كتبه:[2]

1 - إكمال المعلم بفوائد مسلم:

موضوع هذا الكتاب كما هو واضح من عنوانه هو شرح كتاب "الجامع الصحيح" للإمام مسلم بن الحجاج [3]، كما به شرح أبي عبيد الله محمد بن علي المازري [4]، يقول القاضي عياض في مقدمته "إن طلبة العلم الذين اجتمعوا لديه رغبوا إليه في التفقه في صحيح الإمام مسلم والوقوف على معاني أخباره، والكشف عن أسراره وبيان غامضه ومشكله وتقييد مبهمه ومهمله، والتنبيه على ما وقع من احتلال لبعض رواته في أسانيده ومتونه، والبسط لما في مقدمته من أصول علم الأثر وفنونه....."

وإنه رغب في إجابتهم إلى ما التمسوه أو تحقيق ما أملوه، لأنه لم يؤلف في شرح صحيح مسلم إلا ما ذكره أبو علي الجياني في تقييد المهمل.[5]

2 - بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد:

وقد خصصه عياض لشرح حيث أم زرع الطويل، حيث ساق جميع روايات الحديث بأسانيده، منبها على اختلاف ألفاظ الرواة، ثم شرح الألفاظ الغربية شرحا وافيا، وبين الأحكام الفقهية وغيرها من الفوائد المستنبطة من الحديث والمتعلقة به، ونبه على ما فيه من فنون البلاغة.[6]

---

[1] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 70.

[2] نفسه، ص: 71.

[3] هو الإمام الحافظ الحجة المتقن، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري صاحب "الصحيح" ولد سنة 206هـ، وتوفي في شهر رجب سنة إحدى وستين ومائتين؛ ينظر: الحسين بن محمد شواط، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص، ص: 17 – 18.

[4] هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، نسبة إلى "مازرا"، إحدى مدن جزيرة صقلية الواقعة في البحر الأبيض المتوسط، توفي سنة 536هـ؛ ينظر: الحسين بن محمد شواط، منهجية الفقه عند القاضي عياض، ص: 101 – 102.

[5] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 72.

[6] الحسين بن محمد شواط، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص: 154.

وهو أفضل شروح هذا الحديث، وقد أفاد منه من جاء بعده فقد قال ابن الحجر، بعد أن ذكر جماعة ممن شرحوا هذا الحديث: "... ثم القاضي عياض، وهو أجمعها وأوسعها، وأخذ منه غالب الشراح من بعده...."

وقد طبع الكتاب في المغرب بعناية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.[1]

3 - الالماع في ضبط الرواية وتقييد السماع:

وهو أحد الكتب التي كثر اعتماد المتكلمين في مصطلح الحديث عليها، وقد وصلنا هذا الكتاب النفيس، ونشر بتحقيق الأستاذ السيد صقر، في دار التراث في مصر سنة 1970م.[2]

والكتاب مشهور بين طلبة العلم، وقد ضمنه القاضي (رحمه الله) تسعة عشر بابا، حرر في معظمها قواعد دقيقة لم يسبق إلى كثير منها حول سماع الحديث، وروايته، وأنواع التحمل والأداء، وصيغ التعبير عن ذلك، وكتابة الحديث، وضبطه، وتقييده، وحكم الرواية بالمعنى، وإصلاح الخطأ في كتب الحديث، وضبط اختلاف الروايات، ونحو ذلك من مهمات هذا الباب.[3]

4 - مشارق الأنوار على صحيح الآثار:

وقد طبع هذا الكتاب في المغرب في سلسلة تراثنا الإسلامي، ونشر في دار التراث، المكتبة العتيقة سنة 1328هـ، وهو كتاب من أقوم ما خلف القاضي عياض رحمه الله، مفيد جدا في تفسير الحديث المختص بالصحاح الثلاث وهي: الموطأ والبخاري ومسلم، فجاء هذا الكتاب أجل كتب القاضي عياض قدرا، وأنبهها ذكرا [4]، وأكثرها دلالة على عظم مكانته في فنون الرواية، حيث قام بتحقيق نصوص الموطأ والصحيحين وقد كان ابن الصلاح ينشد عند ذكره:

مشارق أنوار تسنت بسبتة **** وذا عجب كون المشارق بالمغرب

ويرجع الفضل في حفظ هذا الكتاب إلى أبي عبد الله محمد بن علي بن يوسف الأنصاري، المتوفي سنة 645 للهجرة.

---

[1] الحسين بن محمد شواط، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص: 155.
[2] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 74.
[3] الحسين بن محمد شواط، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص: 155.
[4] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 89.

ثانيا: مصنفاته الفقهية

صنف القاضي عياض في الفقه مجموعة من الكتب، ساعده على ذلك سعة علمه وروايته، التي أحلته المحل الأول في الفقه المالكي، وجعلت أبناء عصره يعولون عليه في حل ألفاظ مدونة سحنون، وضبط مشكلاتها، وتحرير رواتها، وهي التي مكنت له من أسباب التفوق في تأليف كتبه.[1]

1 - الإعلام بحدود قواعد الإسلام:

وقد طبع هذا الكتاب بوزارة الشؤون الإسلامية بالمغرب في سلسلة مطبوعاتها، بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت.

وهو كتيب صغير، كتبه القاضي عياض بأسلوب بسيط، وطابعه العام هو الطابع السردي التقريري، الذي يخلو من المناقشة وإثارة الاختلاف وهو إلى جانب ذلك كله شديد الإيجاز.[2]

وواضح من أسلوبه، أنه كتبه ليحفظه المتعلمون، لذلك لم يشق عليهم بالتطويل ولا بالتعقيد بل اختار لكتابه هذا أسلوبا سهلا، بعيدا عن الضيع.[3]

2 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك:

وهو كتاب في طبقات المالكية، لا يوجد لهم مثله، صغره بترجمة موسعة للإمام مالك ثم ذكر تلاميذ مالك من مختلف البلاد، ثم ذكر من بعدهم إلى طبقة شيوخه، يبدأ في كل طبقة بأهل المدينة ثم أهل العراق والمشرق عامة، ثم أهل إفريقية، ثم أهل الأندلس والمغرب.

ويبدو أن عياضا رحمه الله قد أتم تأليف هذا الكتاب آخر حياته لأنه لم يجد مجالا لإسماعه للطلبة.[4]

3 - التنبيهات المستنبطة على المدونات المختلطة:

الكتب المدونة والمختلطة هي أصل المذهب المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة، وإياها اختصر مختصروها وبها مناظراتهم ومذكراتهم.[5]

---

[1] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 92.
[2] نفسه، ص: 94.
[3] نفسه، ص: 95.
[4] الحسين محمد شواط، منهجية الفقه عند القاضي عياض، ص: 159.
[5] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 101.

ثالثا: مصنفاته في السيرة النبوية

1 - اختصار شرف المصطفى:

"وشرف المصطفى صلى الله عليه وسلم" كتاب لأبي سعد بن عبد الملك بن محمد الواعظ النيسابوري الخركوشي المتوفي سنة 406هـ، وهو ثماني مجلدات ويسمى أيضا "شرف النبوة" وقد اختصره القاضي عياض.

وكأن القاضي عياض كان يمهد لتأليف كتابه الشفا فاستطال "شرف المصطفى" فلخصه ليسهل رجوعه إليه، واستفادته منه.[1]

2 - الشفا بتعريف حقوق المصطفى:

سماه الذهبي "الشفا في شرف المصطفى" وهو موضوع دراستنا وسنتطرق إليه إن شاء الله في الفصل الثاني والثالث.

رابعا: مصنفاته التاريخية:

1 - أخبار القرطبيين:

ذكره ابنه في التعريف وقال: "وله تاريخ لعلماء قرطبة يسمى أخبار القرطبيين".

2 - تاريخ المرابطين:

كتب فيه تاريخ المرابطين، وانتهى إلى سنة 540هـ، أي قبل وفاته بأربع سنوات.[2]

3 - الفنون الستة في أخبار سبتة:

وبعضهم يسميه "العيون الستة"، استوعب فيه أخبار مدينته سبتة، وتراجم علمائها.[3]

4 - الجامع في التاريخ:

ذكره القاضي عياض في ترجمة عبد الله بن ياسين، القائم بدعوة المرابطين بقوله: "وقد بسطنا أخباره في كتاب التاريخ".[4]

---

[1] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 102.
[2] نفسه، ص: 104.
[3] الحسين محمد بن شواط، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص: 162.
[4] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 104.

5 - الغنية في أسماء شيوخه:

وقد نشر هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ ماهر زهير جرار وطبع في دار الغرب الإسلامي بيروت سنة 1982م.[1]

خامسا: مصنفاته الأدبية

1 -كتاب التنبيهات:

انفرد بذكره ابن خلكان، وقال: إنه جمع فيه غرائب وفوائد.

2 -كتاب خطبه:

وقد تم العثور على مجموعة من خطبه، إلا أن هذه المجموعة من الخطب ليست المقصود هنا.[2]

3 -سر السراة في آداب القضاة:

وهو مفقود أو يظهر من عنوانه أنه يتعلق بشروط القاضي ومسلكه في القضاء، من حيث الاستماع للخصوم، والشهود، ووسائل الإثبات ونحو ذلك من متعلقات مهنة القضاء.[3]

4 -كتاب سؤالات وترسيل:

ذكره الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ضمن ثبت مؤلفاته.

5 -غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسيل:

هكذا أورد أبو عبد الله في التعريف أما بقية المصادر فمختلفة في إيراد هذا الاسم.

ففي كشف الظنون "في صدور الرسائل" وفي الإحاطة "في الصدور أو الرسائل"، وقال ابن خاتمة "كتاب في سؤالات وترسيل له" في نحو أربعة أسفار، وهو مفقود.

6 -غريب الشهاب: وهو مفقود

7 -كتاب القواعد:

8 -المقاصد الحسان: قال أبو عبد الله في التعريف: "وهو من الكتب التي لم يكملها".[4]

[1] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 106.
[2] نفسه، ص: 112.
[3] الحسين محمد بن شواط، القاضي عياض عالم المغرب، ص: 230.
[4] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 113.

الفصل الثاني

التعريف بكتاب الشفا

الفصل الثاني: التعريف بكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للقاضي عياض

المبحث الأول: موضوع الكتاب وتوثيق نسبته إلى صاحبه

عنى المحدثون بالكتابة في شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي بيان حقوقه، فالرسول جدير بأن يعتنى بالتأليف في حقه [1]، قال العز بن عبد السلام: " واعلم أنه لا أدب كأدب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا خلق كأخلاقه، فمن وفقه الله أعانه على البحث عن أخلاقه والاقتداء به، ليتخلق منه بما قدر عليه، ويصل إليه، وما مضى أحد إلا وقد هم ولم، فيا سعادة من اقتدى به، واستسن بسيرته، وأخذ بطريقته وامتلأ قلبه من صحبته"[2].

وكيف لا يكون كذلك وقد قال الله تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ". [3]

وقوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي". [4]

وقوله تعالى: " وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ". [5]

وقوله تعالى: " وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ". [6]

وكان خلقه الممدوح بالعظمة إتباع القرآن، والقرآن مشتمل على الأمر بإتباعه صلى الله عليه وسلم.[7]

وقد كان فضل السبق إلى الكتابة في شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم للإمام الحافظ الترمذي حيث ألّف كتابه "الشمائل"[8]، وألف بعده الحافظ أبو بكر المقري كتابا في الشمائل، وكذلك الحافظ أبو العباس المستغفري، وأبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، الذي ألف كتابه "الأنوار في شمائل النبي المختار"، وألف الحافظ أبو نعيم "دلائل النبوة". [9]

---

[1] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 297.

[2] عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، القواعد الكبرى المسوم بقواعد الأحكام في إصلاح الأنام، تح: نزيه كمال وآخرون، دار القلم، دمشق، 1421هـ - 2000م، ج1، ص: 29.

[3] القلم، الآية 4.

[4] الأحزاب، الآية 56.

[5] آل عمران، الآية 132.

[6] النساء، الآية 79.

[7] فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، دار القلم، دمشق، (د.ت)، ط3، ص: 8.

[8] جمع الإمام أبو عيسى الترمذي في كتابه "الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية" صفات النبي صلى الله عليه وسلم الجسمية والخلقية، وقد قسمه إلى خمسة وخمسين بابا؛ ينظر: منصور محمد أحمد يوسف، **جهود العلماء في بيان الشمائل النبوية**، مجلة جامعة المدينة العالمية، العدد السابع، سبتمبر 2012، ص: 145.

[9] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 297 – 298.

ومن كتب الشمائل (أعلام النبوة) لأبي داود السجستاني، و(دلائل الرسالة) لعبد الرحمان بن محمد بن فطيس القرطبي.[1]

ومنها كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وهو موضوع دراستنا، والكتاب وإن كان موضوعه العام هو سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنه تناول ذلك من جوانب عقيدية أصولية فقهية، بلغة بليغة، وأسلوب بديع، وحجج قوية، وبراهين ساطعة نقية.[2]

قال ابن فرحون: "أبدع فيه كل الإبداع، وسلم له أكفاؤه فيه، ولم ينازعه أحد في الانفراد به، ولا أنكروا مزية السبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه، وجدّوا في الاستفادة منه، وحمله الناس وطارت نسخه شرقا وغربا".[3]

ومنها كتاب دلائل الإيجاز لأبي عوانة يعقوب بن إسحاق وكتاب الوفا بأحوال المصطفى عبد الرحمان بن الجوزي.[4]

وقد ألفت في الشمائل غير هذه الكتب وفي حقوقه وصفاته، وأول المصادر لدراسة شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم هو القرآن الكريم، وثبوته بالتواتر أمر مسلم به لا مرية فيه، وحديثه عن السيرة كثير [5]، ومن صور ذلك قوله عز وجل: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ".[6]

ثم السنة النبوية التي تكفلت بنقل تلك الشمائل والتي هي أحد موضوعات السنة.[7]

---

[1] هو عبد الرحمان بن محمد بن عيسى قاضي الجماعة، يكنى بأبي المطرف، كان من جهابذة أهل الحديث، صنف فضائل الصحابة وأسباب النزول، توفي سنة 42هـ؛ ينظر: البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 298.

[2] الحسين بن محمد شواط، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ص: 217.

[3] نفسه، ص: 218.

[4] هو الإمام أبو الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمد بن البغدادي، القرشي، توفي سنة 598هـ؛ ينظر: شمس الدين بن المظفر يوسف بن قز أوغلي بن عبد الله سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: محمد بركات وآخرون، دار الرسالة العالمية، دمشق، 2013م – 1434هـ، ج1، ص: 23.

[5] مروان فياض مرعى النعيمي، **مصادر كتابة السيرة النبوية (دراسة نقدية)**، مجلة التربية والعلم، العدد الخامس، 2012، ص: 253.

[6] التوبة، الآية 129.

[7] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 299.

المبحث الثاني: دافع القاضي عياض لتأليف هذا الكتاب

بدأ القاضي عياض كتابه الشفا بمقدمة جيدة المعنى سليمة المبنى، فبعد ديباجة رصينة ذكر دافعه لتأليف الشفا، إذ يقول: "الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى المختص بالملك الأعز الأحمى[1]، الذي ليس دونه منتهى، ولا ورائه مرمى، الظاهر لا تخيلا ووهما، والباطن تقدسا لا عدما، وسع كل شيء رحمة وعلما، وأسبغ على أوليائه نعاعما، وبعث فيهم رسولا من أنفسهم، أنفسهم عربا وعجما، وأزكاهم معتدا ومنمى، وأرجحهم عقلا وحِلما، وأوفرهم علما وفهما، وأقواهم يقينا وعزما، وأشدهم بهم رأفة ورحمى، وزكاة روحا وجسما، وحاشاه عيبا ووصما، وأتاه حكمة وحكما، وفتح به أعينا عميا، وقلوبا غلفا وآذانهما، فآمن به وعزره، ونصره من جعل الله له في مغنم السعادة قسما، وكذب به وصدف عن آياته من كتب الله عليه الشقاء حتما [2]، قال الله تعالى: " وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى" [3]، صلى الله عليه وسلم صلاة تنمو وتنمى وعلى آله وسلم تسليما، أما بعد:- أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين، ولطف لي ولك بما لطف به لأوليائه المتقين، الذين شرفهم "الله" بنزل قدسه، وأوحشهم من الخليقة بأنسه، وخصهم من معرفته ومشاهدة عجائب ملكوته، وآثار قدرته بما ملأ قلوبهم حبرة، ووله عقولهم في عظمته حيرة، فجعلوا همم به واحدا، ولم يروا في الدارين غريه مشاهدة، فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعمون، وبين آثار قدرته وعجائب عظمته يترددون، وبالانقطاع إليه والتوكل عليه يتعززون، بصادق قوله [4]: (قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ). [5]

فإنك كررت علي السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما يجب له من توقير وإكرام، وما حكم من لم يوف واجب عظيم ذلك القدر، أو قصر في حق منصبه الجليل قلامة ظفر، وأن أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من قال، وأبينه بتنزيل صور وأمثال. [6]

---

[1] الأحمى: حميت الشيء حماية وحميا: إذ دفعت عنه، ومنعت منه من يقربه، وهذا الشيء حمي: أي محظور لا يقرب؛ ينظر: القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تح: عبده علي كوشك، وحدة البحوث والدراسات، الإمارات العربية المتحدة، 1434هـ - 2013م، ص: 45.

[2] نفسه، ص ص: 45 – 46.

[3] الإسراء، الآية 72.

[4] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 46.

[5] الأنعام، الآية 92.

[6] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 46.

فاعلم رحمك الله أنك حملتني من ذلك أمرا إمرا، وأرهقني فيما ندبتني إليه وأرقيتني مرتقى صعبا، ملأ قلبي رعبا، فإن الكلام في ذلك يستدعي تقرير أصول وتحرير فصول، والكشف عن غوامض ودقائق من علم الحقائق، فما يجب للنبي صلى الله عليه وسلم ويضاف إليه أو يمتنع أو يجوز عليه، ومعرفة النبي والرسول، والرسالة والنبوة والمحبة والخلة........،[1] لكن لما رجوته لي ولك في هذا السؤال والجواب من نوال وثواب بتعريف قدره الجسيم، وخلق العظيم، وبيان خصائصه التي لم تجتمع من قبل في مخلوق، وما يدان الله تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق: "لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِيمَانًا".[2]

ولما حدثنا به أبو الوليد: هشام بن أحمد الفقيه رحمه الله تعالى بقراءتي عليه، قال حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا أبو عمر النمري، حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن، حدثنا محمد بن بكر .... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة).

فبادرت إلى نكت مسفرة عن وجه الغرض، مؤديا من ذلك الحق المفترض، اختلستها على استعجال، لما المرء بصدده من شغل البدن والبال، بما طرقه الإنسان من مقاليد المحنة التي ابتلي بها، فكادت تشغل عن كل فرض ونفل......[3]

جبر الله صدع قلوبنا، وغفر عظيم ذنوبنا، وجعل جميع استعدادنا لمعادنا، وتوفر دواعينا فيما ينجينا، ويقربنا إليه تعالى زلفى، ويحظينا منه وكرمه ورحمته.

ولما نويت تقريبه، ودرجت تبويبه، ومهدت تأصيله وخلصت تفصيله، وانتحيت حصره وتحصيله، ترجمته بـ (الشفا بتعريف حقوق المصطفى).[4]

وبهذه المقدمة الصغيرة نسبيا، حدد فيها سبب تأليفه له وإنه طلب منه وتكرر ن أجل التعريف بقدر المصطفى صلى الله عليه وسلم وأنه رجى بذلك الأجر والثواب من الله تعالى.[5]

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 37.
[2] المدثر، الآية 31.
[3] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 38.
[4] نفسه، ص: 39.
[5] نواري بالة، المرجع السابق، ص: 169.

وما يفسر حب القاضي عياض الشديد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن أغلب قصائده[1] جاءت في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، فترجمت بذلك اهتماماته المذهبية والدينية ليكون من أول أدباء الأندلس الذين مدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم.[2]

المبحث الثالث: منهج القاضي عياض وأسلوبه في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم

- **منهجه:**

يقع كتاب الشفا في أغلب طبعاته في جزأين، وقد قسمه المؤلف إلى أربعة أقسام قبلها مقدمة، قسم كل من القسمين الأولين إلى أربعة أبواب، والقسم الثالث قسمه إلى بابين، وكذلك القسم الرابع، فجملة ما في الشفا من الأبواب اثنا عشر بابا، ويذكر البشير علي حمد الترابي في كتابه "القاضي عياض وجوده في علمي الحديث رواية ودراية"، أنه حرر جملة ما فيه من فصول فوجدها مائة وسبعين وخمسين فصلا.[3]

والقاضي في المقدمة قد وضح أقسام كتابه وترتيبه وموضوعاته في تنظيم دقيق، وتخطيط فريد يضاهي أحدث ما وصل إليه الناس في العصر الحديث في تخطيط البحوث وتبويب الرسائل.

فالكتاب مقسم إلى أقسام، والأقسام إلى أبواب وكل باب تحته فصول، وكل فصل يتناول جانبا مما اشتمل عليه موضوع الباب.

وهذا ما يجعل الشفا في القمة من المصنفات دقة في التبويب والتقسيم والمنهجية وبعد المقدمة، شرع القاضي عياض في كتابه على ما رتبه من الأبواب وقسمه من الأقسام.[4]

إذ يذكر القاضي عياض أنه لما نوى تقريبه، ودرج تبويبه، ومهد تأصيله، وخلص تفصيله وانتحى حصره وتحصيله، ترجمه بـ "الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم وحصر الكلام فيه في أقسام أربعة:

---

[1] ينظر: الملحق الخاص بهذه الدراسة، ص، ص: 90 – 92.

[2] جيلالي بن يشو، **شعر التوسل عند القاضي عياض (دراسة لغوية)** ، مجلة حوليات التراث، العدد الأول، 2014، ص: 35.

[3] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 303

[4] نفسه، ص: 304.

- **القسم الأول:** في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي قولا وفعلا، وتوجه الكلام فيه في أربعة أبواب:
  - **الباب الأول:** في ثنائه تعالى عليه، وإظهار عظيم قدره لديه، وفيه عشرة فصول.
  - **الباب الثاني:** في تكميله تعالى له المحاسن خَلقا وخُلُقا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقا، وفيه سبعة وعشرون فصلا.
  - **الباب الثالث:** في ما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته، وما خصه بعه في الدارين من كرامته، وفي اثنا عشر فصلا.
  - **الباب الرابع:** فيما أظهره تعالى على يديه من الآيات والمعجزات، وشرفه به من الخصائص والكرامات، وفيه ثلاثون فصلا.
- **القسم الثاني:** فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام، وترتيب القول فيه في أربعة أبواب:
  - **الباب الأول:** في فرض الإيمان به ووجوب طاعته وإتباع سنته، وفيه خمسة فصول.[1]
  - **الباب الثاني:** في لزوم محبته ومناصحته، وفيه ستة فصول.
  - **الباب الثالث:** في تعظيم أمره ولزوم توقيره وبره، وفيه سبعة فصول.
  - **الباب الرابع:** في حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته، وفيه عشرة فصول.
- **القسم الثالث:** فيما يستحيل في حقه، وما يجوز عليه شرعا، وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه.[2]

وهذا القسم هو سر الكتاب ولباب ثمرة هذه الأبواب، وما قبله له كالقواعد والتمهيدات والدلائل على ما نورده فيه من النكت البينات، وهو الحاكم على ما بعده[3]، والمنجز من غرض هذا التأليف وعده، وعند التقصي لموعدته، والتقصي عن عهدته، يضيق صدر العدو اللعين، ويشرق قلب المؤمن باليقين، وتملأ أنواره جوانح صدره، ويقدر العاقل النبي حق قدره، ويتحرر الكلام فيه في بابين.

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 10.
[2] نفسه، ص: 10.
[3] نفسه، ص: 11.

- **الباب الأول:** فيما يختص بالأمور الدينية، ويتثبت به القول في العصمة، وفيه ستة عشر فصلا.
- **الباب الثاني:** في أحواله الدنيوية، وما يجوز طروءه عليه من الأعراض البشرية، وفيه تسعة فصول.

▪ **القسم الرابع:** في تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه أو سبه صلى الله عليه وسلم، وينقسم الكلام فيه في بابين.

- **الباب الأول:** في بيان ما هو حقه سب ونقص، وفيه عشرة فصول.
- **الباب الثاني:** في حكم شانئه ومؤذيه ومنتقصه وعقوبته، وذكر استتابته، والصلاة عليه ووراثته، وفيه عشرة فصول.

وختمناه بباب ثالث جعلناه تكملة لهذه المسألة ووصلة للبابين اللذين قبله، في حكم من سب الله تعالى ورسله وملائكته وكتبه، وآل النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه.

واختصر الكلام فيه في خمسة فصول، وبتمامها ينجز الكتاب، وتتم الأقسام والأبواب وتلوح في قوة الإيمان لمعة منير، وفي تاج التراجم درة خطير، تزيح كل لبس، وتوضح كل تخمين وحدس، وتشفي صدور قوم مؤمنين، وتصدع بالحق وتعرض عن الجاهلين، وبالله تعالى لا بإله سواه .... أستعين.[1]

القسم الأول: وقد أورد الكلام على ذلك في أربعة أبواب:

في **الباب الأول** الذي جعله في ثناء الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم، فضل القاضي الكلام في عشرة فصول، ذكر فيها ما جاء من القرآن الكريم مجيء المدح والثناء [2]، مثل قوله تعالى: **"لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ"** [3]، وما جاء من وصفه بالشهادة مثل قوله تعالى: **"يَأَيُّهَا النَّبِي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا"**.[4]

وذكر من القرآن ما استدل به على تفضيل الله له على سائر الأنبياء والمرسلين، وما جاء من إحكام الله الخلق برفع العذاب بسب الرسول عليه الصلاة والسلام، كقوله تعالى:

---

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 12.
[2] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 304 – 305.
[3] التوبة، الآية 129..
[4] الأحزاب، الآيتان 45 – 46.

" وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ". [1]

قال القاضي عياض، أعلم الله تعالى المؤمنين، أو جميع الناس، أنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفونه، ويتحققون مكانه، ويعلمون صدقه وأمانته فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم، لكونه منهم، وأنه لم تكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة.

ثم بين القاضي عياض، أن الحق سبحانه وتعالى وصفع بعدة أوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يعنتهم ويضر بهم في دنياهم وأخراهم، وعزته عليهم، ورأفته ورحمته بمؤمنيهم، حيث أعطاه الله اسمين من أسماه رؤوف رحيم.

ولقد علم سبحانه وتعالى، عجز خلقه عن طاعته، فعرفهم ذلك لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته، فأقام بينه وبينهم مخلوقا من جنسهم في الصورة، ألبسه من نعته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيرا صادقا، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته. [2]

فقال تعالى: "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ". [3]

وقال أيضا عز وجل: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ". [4]

وقوله تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُواْ مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ". [5]

وقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُواْ مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ". [6]

وقوله تعالى: "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ". [7]

قال الفقيه القاضي أبو الفضل رحمه الله، هذا تقرير من الله جل اسمه لنبيه عليه الصلاة والسلام على عظيم نعمه لديه، وشريف منزلته عنده، وكرامته عليه، بأن شرح قلبه للإيمان والهداية ووسعه لوعي العلم، وحمل الحكمة، ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه، وبغضه

[1] الأنفال، الآية 33.
[2] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 193.
[3] النساء، الآية 79.
[4] الأنبياء، الآية 106.
[5] آل عمران، الآية 164.
[6] الجمعة، الآية 02.
[7] البقرة، الآية 150.

لسيرها، وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كله، وحط عنه عهده أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نزل إليهم، وتنويهه بعظيم مكانه، وجليل رتبته.[1]

وفي **الباب الثاني** من هذا القسم والذي جعله في تكميل الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم المحاسن خلقا وخلقا، وجمعه له الفضائل الدينية والدنيوية.

جعل الكلام فيه في سبعة وعشرين فصلا.

فبين أولا خصال الكمال والجمال، ثم عدد خصال الكمال والجمال الدنيوي، منها والديني فقال: إن الله قد جمع كل صفات الكمال البشري في الرسول صلى الله عليه وسلم.

فهو صلى الله عليه وسلم أعلى الناس قدرا وأعظمهم محلا، وأكملهم محاسن وفضلا [2]، وأعقب ذلك بإيراد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم الوارد في أحاديث أنس بن مالك وأبي هريرة وعائشة أم المؤمنين، وابن أبي هالة وأم معبد، رضي الله عنهم وتكلم عن نظافته.

وتكلم عن قوة حواسه ووفور عقله وحسن شمائله وفصاحة لسانه، فقد كان صلى الله عليه وسلم أفصح الناس وأذكاهم.

وتكلم عن شرف نسبه وكرم منشئته، وطيب أصله، وهو في كل ذلك يستشهد بالأحاديث الدالة على ما يذكره ويفصله.[3]

وقد قسم ضروريات الحياة إلى أضرب، ضرب منها الفضل في قلته كالأكل والنوم وقد أخذ منه صلى الله عليه وسلم بالأقل، وضرب الفضل في كثرته كالزواج وقد أخذ منه صلى الله عليه وسلم بالأكثر، وضرب تختلف فيه الأحوال باختلاف التصرف [4]، وهو المال فمن استأثر به وتفاخر كان مذموما، ومن أنفقه وأعان به كان محمودا، وقد كان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس إنفاقا فقد أوتي خزائن الأرض ومفاتيح البلاد، وأحلت له الغنائم.

وتكلم القاضي عن الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة، والآداب الشريفة ويكفيك قول الله تعالى شاهدا فيه[5]: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ".[6]

---

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص، ص: 60 – 61.
[2] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 305.
[3] نفسه، ص: 306.
[4] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 128.
[5] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 306.
[6] القلم، الآية 04.

وقالت عائشة رضي الله عنه، كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن، يرضى برضاه ويسخط بسخطه.

وهكذا لسائر الأنبياء والمرسلين، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك، كما عرف من حال عيسى، وموسى، ويحيى، وسليمان، وغيرهم عليهم السلام.

بل غرزت فيهم هذه الأخلاق في الخلقة، وأودعوا العلم والحكمة في الفطرة، [1] قال الله تعالى: "وَءَاتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا".[2]

أمال الحلم والاحتمال، والعفو عند المقدرة، فقد كان صلى الله عليه وسلم سيد الحلماء في الجود كان أجود الناس.

أما **الباب الثالث:** فقد جعله القاضي فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره صلى الله عليه وسلم عند ربه، وما خصه به تعالى في الدارين من الكرامة.

وجعل ذلك في اثني عشر فصلا، تكلم فيها عما ورد من ذكر مكانته عند ربه وذكر جملة كبيرة من خصائصه صلى الله عليه وسلم.

وتكلم عن تفضيله بكرامة الإسراء، والمناجاة، وإمامة الأنبياء والرؤية، والعروج إلى سدرة المنتهى، وقد بسط الكلام في الإسراء وذكر الروايات فيه ونقد بعض رواياته متنا وسندا نقد البصير العارف، وأوضح الخلاف في كونه بالروح أم بالروح والجسد؟ واختار أنه بالروح والجسد.

ثم عرج على خصائصه صلى الله عليه وسلم فذكر الشفاعة العظمى، وسبقة العالمين في الدخول إلى الجنة، وذكر تفضيل الله للرسول صلى الله عليه وسلم بالمحبة والخلة والمقام المحمود والوسيلة، والدرجة الرفيعة.[3]

بعد ذلك تكلم عن أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم وما حوته من معاني الفضل وما أورده من الأحاديث بشأن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم[4]: "لي خمسة أسماء أنا محمد، وأنا وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب أي آخر الأنبياء".[5]

---

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 141.
[2] مريم، الآية 11.
[3] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 306 – 307.
[4] نفسه، ص: 308.
[5] أنس بن مالك ، موطأ مالك، تح: فؤاد عبد الباقي، الناشر مصطفى الباجي الحلبي، 1406هـ - 1985م، ص: 1004.

أما **الباب الرابع**: وهو الأخير من القسم الأول فقد خصه بما أظهره الله تعالى على يدي الرسول صلى الله عليه وسلم من المعجزات، وشرفه به من الخصائص والكرامات، وقد جعله في ثلاثين فصلا.

بدأ بفصول تكلم فيها عن معنى النبوة والرسالة والنبي والرسول، والمعجزة وأقسامها، فأوضح وأبان.

ثم فصل معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم [1]، إذ يذكر القاضي عياض "أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته وبراهين صدقه....، وهو أكثر الرسل معجزة وأبهرهم آية وأظهرهم برهانا.... وهي في كثرتها لا يحيط بها ضبط، فإن واحدا منها هو القرآن الكريم لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين، ولا أكثر". [2]

ثم ذكر معجزاته صلى الله عليه وسلم الحسية من انشقاق القمر نصفين له، وحبس الشمس، ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم، وزيادة بركته في غير مرة وتفجره وانبعاثه له وكثرة الطعام ببركة دعائه حتى شبع الفقير من الزاد القليل، وذكر الأحاديث في الصدد بطرقها المختلفة، وقال: إن أكثر أحاديث هذا الفصل في الصحيح.

واسترسل يخاطب معجزات الرسول الحسية ..... كمخاطبة الشجرة له صلى الله عليه وسلم وشهادتها بنبوته، وسقوط الأصنام من إشارته، ونسج العنكبوت حماية له في الغار، وتكلم عن دلائل نبوته والإرهاصات لها من الأشياء التي حدثت قبل ولادته. [3]

وقال في نهاية هذا الباب: (إن هذه نكت من معجزاته واضحة، وجمل من علامات نبوته مقنعة، في واحد منها الكفاية والغنية، وتركنا الكثير سوى ما ذكرنا، واقتصرنا من الأحاديث الطوال على عين الغرض، وفص المقصد..... وبحسب هذا الباب لو تقصى "بلغ أقصاه في البحث عنه" أن يكون ديوانا جامعا يشتمل على مجلدات عدة...). [4]

وبنهاية هذا الباب انتهى القسم الأول الذي استغرق نصف الكتاب. [5]

---

[1] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 308.

[2] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 312.

[3] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 308 – 309.

[4] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق لمصطفى، ص: 464.

[5] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 309.

القسم الثاني: فيما يجب على الأنام من حقوقه صلى الله عليه وسلم

وقد لخص القاضي الكلام في هذا القسم في أربعة أبواب

الباب الأول: في فرض الإيمان به، ووجوب طاعته وإتباع سنته.

استدل في أوله بالقرآن الكريم والأحاديث على وجوب الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وتصديقه.[1]

قال القاضي أبو الفضل: "والإيمان به عليه الصلاة والسلام هو تصديق نبوته ورسالة الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قال له، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله، فإذا اجتمع التصديق به بالقلب، والنطق بالشهادة بذلك تم الإيمان به والتصديق له".[2]

وذكر شأن السلف من الصحابة والأئمة في الاقتداء به صلى الله عليه وسلم، وتتبع آثاره وتكلم عن الوعيد لمخالف أمره ومبدل سنته، فقد قال تعالى: "إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ".[3]

أما **الباب الثاني** فجعله القاضي عياض في لزوم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم ووجه الكلام في ست فصول.

استدل في أولها على وجوب هذه المحبة بالقرآن الكريم والحديث وتكلم عن ثوابتها، وأحوال الصحابة في محبة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وتكلم عن معنى المحبة وبواعثها لدى البشر في فصل دقيق في منتهى الدقة وقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم مستجمع لدواعي المحبة.

أما **الباب الثالث** فجعله في وجوب تعظيم أمره، ووجوب توقيره تكلم فيه عن بواعث الإخلاص له وتوقيره، وأحوال الصحابة وعادتهم في إجلاله، وقال إن احترامه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كاحترامه في حياته، وذلك باحترام ذكره، وحديثه وشريعته، وذكر شأن السلف في توقير الحديث الشريف [4]، قال الله تعالى: " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ".[5]

---

[1] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 309 – 310.
[2] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 473.
[3] المنافقون، الآية 01.
[4] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 310 – 311.
[5] آل عمران، الآية 31.

وقال تعالى: "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَاكِمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا".[1]

وقال تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا".[2]

وقال إن من توقيره توقير أهل بيته وذريته وأزواجه وأمهات المؤمنين، وتوقير أصحابه ومعرفة حقهم والاقتداء بهم، وذكر أن من توقيره رعاية حرمة أماكنه مكة والمدينة وهو في كل هذا يذكر الأحاديث الكثيرة الدالة على ما يذكره ويبين وجه الدلالة منها.

أما **الباب الرابع**: فجعله القاضي في حك الصلاة والسلام عليه وفضيلة ذلك.

ثم تكلم عن زيارة قبره الشريف، وحكمها، وفضلها وما يلزم فيها من الآداب، وفضل مسجده والصلاة فيه، وفضل الروضة الشرفية، وساق الأحاديث الكثيرة في هذا الصدد.

وفي ختام الباب تكلم عن فضل مكة، وقال هذا ليس بابها ولكن لها به تعلق وصلة، وبهذا الباب انتهى القسم الثاني الذي أتبعه بالثالث.[3]

القسم الثالث: فيما يجب للنبي صلى الله عليه وسلم، وما يستحيل في حقه أو يجوز عليه، وما يمتنع أو يصح من الأحوال أو يصح من الأحوال البشرية أن تضاف إليه.[4]

قال الله تعالى: " وَمَا مَحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ".[5]

وقال الله تعالى: " قُلِ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ".[6]

وقال عز وجل: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً".[7]

هذا الباب هو أخطر وأعظم ما في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم التي ألفها القاضي عياض، فهو يتناول دراسة شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم من جانبين هامين.

1 -جانب ديني، هو النبوة.

2 -جانب دنيوي، يتصل بإنسانيته وبشريته.

[1] النساء، الآية 64.
[2] الأحزاب، الآية 21.
[3] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 311.
[4] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 603.
[5] آل عمران، الآية 144.
[6] الكهف، الآية 115.
[7] الأنعام، الآية 10.

وهذا القسم من دراسته نوه به، وأشار إليه القاضي عياض [1]، في مقدمة هذا الكتاب بقوله "وهذا القسم هو سر الكتاب، ولباب ثمرة هذه الأبواب". [2]

وقد بدأ القاضي عياض بمقدمة نفسية، تتحدث عن مكانة الأنبياء والمرسلين وأنهم جميعا بشر بعثوا من قبل الله تعالى، لكي يؤدوا الأمانة، ويحملوا الرسالة، ويهدوا إلى الصراط المستقيم. [3]

الباب الأول: جعله فيما يختص بالأمور الدينية وعصمة نبينا صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء، أدار الكلام فيه في ستة عشر فصلا، وضح فيها عصمتهم عن كل ما يخل بالعصمة من أعمال القلوب كالشك والريب وكل ما ينافي المعرفة الكاملة.

وتكلم عن عصمتهم من ذلك قبل النبوة وقال:إن الأخبار تعاضدت على تنزيههم من هذه النقيصة منذ ولدوا ونشئوا على التوحيد والإيمان".

وبعد بيان عصمتهم في مجال عمل القلب انتقل إلى توضيح عصمة سائر الأنبياء فيما يتعلق بالقول والصدق والتبليغ. [4]

ثم ذكر إجماع المسلمين على عصمتهم من الفواحش والكبائر والموبقات، وأوضح الخلاف في عصمتهم قبل النبوة.

أما **الباب الثاني**، فقد أورد فيه ما يخص الرسل صلوات الله عليهم من الأمور الدنيوية ويطرأ عليهم من العوارض البشرية، فأبان أن الأعراض البشرية الظاهرة تجوز عليهم كالجوع والمرض والتعب والموت كل هذه وغيرها أجراها الله عليهم ليحقق بشريتهم.

أما بواطنهم فمنزهة عن ذلك معصومة منه، وقد أجاد القول في هذا الباب الذي بنهايته ينتهي القسم الثالث. [5]

القسم الرابع: في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقصه أو سبه صلى الله عليه وسلم

هذا هو الباب الرابع والأخير من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو باب فقهي خالص، خصص القاضي الكلام في تصرف وجود الأحكام على من تنقصه أو سبه صلى الله عليه وسلم، وجمع فيه آراء فقهاء المذاهب، وأهل الإفتاء في الأمصار الإسلامية.

---

[1] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 384.
[2] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 51.
[3] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 384.
[4] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 312.
[5] نفسه، ص: 313.

وقد قسم هذا الباب الفقهي إلى قسمين رئيسيين:

أولهما: في بيان ما هو في حقه سب ونقص.

والثاني: في حكم شانئه أي مبغضه ومؤذيه، ومنقصه وعقوبته في ذلك، وما يتصل بهذا من أمر استتابته.

وقد قدم القاضي عياض لهذا الباب بمقدمة قصيرة، حدد فيها استنادا إلى الكتاب والسنة، وإجماع الأمة "موقف الشريعة من العداوة للرسول صلى الله عليه وسلم" [1]، قال القاضي عياض: "قد تقدم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي صلى الله عليه وسلم، وما يتعين له من بر وتوقير، وتعظيم وإكرام، وبحسب هذا حرم الله تعالى آذاه في كتابه، وأجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسابه [2]، قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا". [3]

وقال تعالى أيضا: "وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ". [4]

وقد وضع أمامنا القاضي عياض الحكم الشرعي في من سب الرسول صلى الله عليه وسلم أو عابه، أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة ن خصاله، أو عَرَّض به، أو شبهه بشيء على طريق السب له، أو التصغير لشأنه، أو الفض منه والعيب له، فهو في نظر الشريعة الإسلامية ساب له والحكم فيه حكم الساب وهو القتل.

وينطبق هذا الحكم نفسه، على كل من لعنه، أو دعا عليه، أو تمنى مضرة له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه، على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام، وهجر ومنكر من القول، وزور أو استصغره ببعض من العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه.

وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى أن تقوم الساعة. [5]

بيد أنه رجع للحديث عن حكم الشريعة فيمن كان غير قاصد للسب والإزراء ولا معتقد له، ولكنه تكلم في جهته صلى الله عليه وسلم بكلمة الكفر، من لعنه أو تكذيبه، أو إضافة ما لا يجوز عليه.

---

[1] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 446.
[2] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 760.
[3] الأحزاب، الآية 57.
[4] التوبة، الآية 61.
[5] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 449.

أو نفى ما يجب له، فما هو في حقه نقيصة مثل:

- أن ينتسب إليه إتيان كبيرة، أو مداهنة في تبليغ الرسالة، أو في حكم بين الناس.
- أو يغض من مرتبته، أو شرف نسبه، أو وفور علمه أو زهده.
- أو يكذب بما اشتهر من أمور أخبر بها صلى الله عليه وسلم وتواتر الخبر بها، عن قصد لرد خبره.
- أو يأتي بسفه من القول، أو قبيح من الكلام، ونوع من السب في جهته.
- يقول القاضي عياض: فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول: القتل.[1]

أما أن يقصد تكذيبه صلى الله عليه وسلم، فهذا كافر بإجماع، ويجب قتله؛ ينظر:

- فإن كان مصرحا بذلك، كان حكمه أشبه بحكم المرتد، وقوة الخلاف في استتابته.
- وإن كان مستترا بذلك، فحكمه حكم الزنديق، لا تسقط قتله التوبة عند المالكية والحنفية.

والوجه الرابع كما يقول القاضي عياض أن يأتي الساب للنبي صلى الله عليه وسلم من الكلام بمجمل لا يفهم، ويلفظ من القول بمشكل على النبي يمكن حمله على النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره، أي أن يأتي بعبارات غير واضحة، وبألفاظ غير محددة، لا يسهل[2] معرفة هل المقصود النبي أو غيره.

قال: فهاهنا متردد النظر، وحيرة العبر ومظنة اختلاف المجتهدين، أي يتردد الفقهاء في الحكم عليه، ويضرب القاضي عياض لذلك الأمثلة التي توضح اختلاف الفقهاء في إصدار الحكم.[3]

وبعد ذلك حتم الكتاب بخاتمة عظيمة قال: "هنا انتهى القول بنا فيما حررناه وانتجز الفرض الذي انتحيناه، واستوفى الشرط الذي شرطناه، مما أرجو أن في كل قسم منه للمريد مقنع، وفي كل باب منهج إلى بغيته.

[1] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 352.
[2] نفسه، ص: 359.
[3] نفسه، ص: 360.

وإلى الله تعالى جزيل الضراعة والمنة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما تخلله من تصنع لغير وجهه، وأن يهب لنا ذلك بجميل كرمه وعفوه.... ويجعله لنا ولمن تهمم باكتتابه وإكسابه سببا يوصلنا بأسبابه وذخيرة نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير، وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلاته وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا".

هذا ما تضمنه الشفا عرضناه عرضا موجزا يعطي فكرة عن مضمونه.[1]

- **أسلوبه:**

إن القاضي عياض في كتابه الشفا يحذف الأسانيد في أغلب الأحاديث التي يوردها، وهو إنما يفعل ذلك حشية التطويل، والأحاديث المسندة في كل الكتاب حوالي ستين حديثا.[2]

والقاضي يصدر كل فصل بحديث يسنده أو أحاديث يسندها ثم يأتي بعهد ذلك بالأحاديث من غير إسناد، وإذا كان في الفصل شاهدا من القرآن الكريم قدمه على الأحاديث، وبعد الأحاديث بأتي القاضي بأقوال الأئمة إن وجدت، وقد يقدم على هذا دليلا عقليا بسيط التركيب.[3]

وهو في استشهاده بالقرآن والحديث يحرص على بيان وجه الدلالة في ذلك، ويستعين كثيرا بتفسير الأئمة لهذه النصوص.

ولنأخذ مثلا الفصل الأول من الباب الأول من القسم الثاني ستظهر هذه السمات من منهجه.

هذا الفصل عقده القاضي لبيان وجوب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان قد سبقه ببيان وجوب تصديقه[4]، يقول القاضي "وأما وجوب طاعته، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه، فيما جاء به وجبن طاعته، لأن ذلك مما أتى به".[5]

قال الله تعالى: " وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُواْ".[6]

---

[1] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 315.
[2] نفسه، ص: 316.
[3] نواري بالة، المرجع السابق، ص: 171.
[4] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 316.
[5] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص، ص: 476 – 477.
[6] الحشر، الآية 07.

وقال تعالى: "وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا".[1]

وهو هنا قد قدم دليلا عقليا وحجة منطقية، مستندا أنه دل قبل ذلك على وجوب الإيمان به وتصديقه، وتصديقه يستلزم طاعته، فقد جاء بما يوجب طاعته من الأدلة.

فجعل الله تعالى طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب ووعد مخالفه بسوء العقاب، وأوجب امتثال أوامره، واجتناب نهيه.

قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في التزام سنته والتسليم لما جاء به، وقالوا: ما أرسل الله تعالى من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه، وقالوا من يطع الرسول صلى الله عليه وسلم في سنته يطع الله في فرائضه.[2]

وقال السمرقندي: (يقال أطيعوا الله فير فرائضه والرسول في سنته، وقيل أطيعوا الله فيما حرم عليكم والرسول فيما بلغكم، ويقال: أطيعوا بالشهادة له بالربوبية، والنبي بالشهادة له بالنبوة).

وكما ذكرنا القاضي قد قدم استشهاده بآيات القرآن واستعان بما قاله أهل التفسير والأئمة ثم هذا هو يسند حديثا كعادته فيقول بعد ذلك مباشرة: (حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتي عليه حدثنا حاتم بن محمد حدثنا أبو الحسن علي بن محمد بن خلف حدثنا محمد بن أحمد حدثنا محمد بن يوسف حدثنا البخاري حدثنا عبدان أخبرنا يونس عن الزهري أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمان أنه سمع أبا هريرة يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني"، فطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله إذ أن الله أمر بطاعته، فطاعته امتثال لما أمر الله تعالى به.

وبعد أن أورد القاضي هذا الحديث المسند وبين وجه الدلالة منه ساق بعد ذلك جملة من الأحاديث التي حذف إسنادها ومنها حديث أبي هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى"، وكذلك ساق بقية الأحاديث محذوفة الإسناد خوفا من الإطالة.[3]

---

[1] النساء، الآية 69.
[2] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 317.
[3] نفسه، ص: 218.

ونحن قد رأينا القاضي بعد أن أورد ما استدل به من آيات القرآن يوجه استدلاله ويستعين بأقوال الأئمة في تفسير تلك الآيات مثل أخذه هنا لكلام السمرقندي.

ثم بعد ذلك جاء بالحديث المسند الذي رواه من طريق شيخه ابن عتاب وبين وجه الدلالة منه ثم أردفه بالأحاديث التي ذكرها محذوفة السند.

والقاضي في بعض الأحيان يناقش أسانيد بعض الأحاديث.[1]

وأسلوب الكتاب، أي صياغته اللغوية، صنفان: صنف يغلب عليه السرد العلمي، وآخر يكثر فيه التحليق في فضاء فسيح الأرجاء، يفوح بعطر الروضة الشريفة، والحق أن النصوص التي خرج فيها عياض عن السرد جاءت بشكل واضح.

وأسلوبه في الشفا كان نتاج جهد فكري في قسم منه وعاطفة متأججة في قسم آخر، فالأسلوب التقريري في الشفا تميز بالتحرر من الألوان البديعية والصور البيانية من جهة ومن جهة ثانية فإن أسلوبه السردي تميز بإيجازه الشديد.[2]

وإن أسلوب القاضي عياض السردي التقريري يتميز من جهة ثالثة بالوضوح التام، وذلك على الرغم من إيجازه الشديد، وسبب هذا الوضوح يتمثل في أنه يعمد قبل الكتابة إلى ترتيب أفكار الموضوع الذي يعالجه، فيختار لموضوعه مخططا واضحا يغنيه عن التكرار والإطناب في التعبير.[3]

ثم يبدأ في الكتابة مختارا أدل الألفاظ على المقصود، وأقصر التعابير الممكنة، وذلك حتى وإن كان يناقش أكثر من رأي أو يستشهد بأكثر من قول، فإن لكل رأي مكانه ولكل شاهد موضعه وهو في "الشفا" يعتمد كثيرا على الأسلوب الخطابي فالجمل عنده بنيت على أساس خطابي، إذ يتخيل القارئ أمامه يتلقى منه دون واسطة الكتاب، ولهذا فهو يستعمل ضمير المخاطب، ويكثر من استعمال أدوات التنبيه، كما يزاوج بين الجمل الاسمية والفعلية، ليضمن استمرار انتباه القارئ وتجاوبه معه.

أما الصنف الثاني من أسلوبه فيتمثل في تلك النصوص المتميزة التي وشح بها الكتاب، وهذه النصوص كثيرة منها الفصل الذي عقده لبيان فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم والفصل الخاص بإعجاز القرآن الكريم.

---

[1] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 219.
[2] نواري بالة، المرجع السابق، ص: 171.
[3] نفسه، ص: 172.

وتضاف إلى النصوص السابقة مقدمة الكتاب التي كانت تحظى على الدوام بعناية خاصة من طرف المؤلفين، ومقدمة "الشفا" شحنها القاضي بألوان من البديع، وإن كان نجح كعادته بالخروج بها من التكلف، فقد بناها على حرف واحد فكان السجع لها بمثابة القافية في الشعر، وحلاها أيضا بالازدواج فزاوج بين جمله، بل كلف نفسه المزاوجة بين الجمل الاسمية[1]، والفعلية وذلك بأنه يورد صفا من الجمل السمية ثم يعقبه بصف آخر من الجمل الفعلية، ثم يعود مرة أخرى إلى الجمل الاسمية، وهكذا من بداية النص إلى آخره.

فالقاضي عياض يبدو متحررا من الأعراف الأدبية المعروفة في عصره لأنه لا يكتب لأجل الكتابة ولكنه يكتب ليقول شيئا هو مؤمن به أشد الإيمان، وهذا هو سر الصدق الذي يشعر به القارئ لأسلوبه التأليفي عموما ولأسلوبه في الشفا خاصة، وهو أيضا سر الجمال الذي يظهر في تعابيره.

وأسلوب القاضي عياض في التأليف في "الشفا" يتكئ اتكاء يكاد يكون كليا على الرواية.

فكتاب الشفا إذن ليس كتابا في السيرة بالمعنى الاصطلاحي للكلمة ولو أراد عياض ذلك لاتبع منهج كتب السيرة، فليس فيه تسلسل زمني، على أن القارئ يستطيع أن يستخرج منه صورة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والكتاب تناول موضوعا عقائديا يتمثل أساسا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم على الناس وكذا ما يستحيل في حقه صلى الله عليه وسلم، وما يجوز له من الأمور البشرية، ومع ذلك فإن بعض نصوصه كانت على درجة من الأدبية، تجلت في بعض الخصائص التي تميز بها أسلوبه كابتعاده عن الزخرف [2] البديعي عموما، وتوفره على مقومات جمالية كفصاحة اللفظ ومتانة التركيب وجودة الصياغة والإيقاع الموسيقي الناتج عن الازدواج والسجع.[3]

---

[1] نواري بالة، المرجع السابق، ص: 172.
[2] نفسه، ص: 173.
[3] نفسه، ص: 174.

المبحث الرابع: المصادر المعتمدة في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم

اعتمد القاضي عياض جملة واسعة من المصادر التي اختلفت أهميتها بالنسبة له حسب مذهبه أولا ووفق خطة الكتاب ثانيا، لذا نقل عن بعضها بإعجاب غير خاف أصحابها، ونقل عن طائفة أخرى لإكمال الصورة التي هو بصددها، وأورد عن طائفة ثالثة من المصادر مادة جعلها تحت الفحص والدرس، أثبت منها ما أثبت ورد منها ما رد.[1]

وقد تساهل القاضي أحيانا في ذكر من نقل عنهم أو استشهد بهم حيث ذكر أسمائهم على سبيل الاختصار، مما يوقع الوهم، كما أنه اكتفى بذكر المؤلفين الذين رجع إليهم دون إشارة إلى الكتاب المعني بالذات في حين أن لبعض هؤلاء جملة من المؤلفات يدخل بعضها في باب الفقه ويدخل البعض الآخر في باب الحديث، وعلى العموم يمكن تصنيف مصادره وفق الآتي:[2]

- **القرآن الكريم:** والقرآن مصدر أساسي تستمد منه ملامح سيرة النبي صلى الله عليه وسلمن فهو كلام رب العالمين، أنزله على عبده ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم لفظا ومعنى بطريق الوحي، لذلك فهو في مقدمة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم العطرة، إنه يتضمن الحديث عن الرسول ودعوته والرسالة وما يتصل بها، ويتناول جوانب كثيرة من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وحياته ومكانته عند ربه، كما يتضمن توجيهات الله له، ويتضمن بيان أصول العقيدة الإسلامية، وبيان تنظيم المجتمع الإسلامي، إلى جانب كثير من الأحكام ذات الأهمية الكبيرة في بيان النظم الإسلامية.[3]

وفي القرآن الكريم تلخيص للكثير من الأحداث التاريخية في عصر النبوة خاصة ما يتصل بغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يصور ظروف النبي صلى الله عليه وسلم، وحال المسلمين، والأجواء العامة التي وقعت فيها هذه الغزوات والأحداث الأخرى الهامة، كما يحدد الأبعاد النفسية التي كان عليها الرسول ورجاله، ويوضح ذلك بدقة، وهذا ما لا نجده إلا في القرآن الكريم.[4]

---

[1] بدري محمد فهد، **كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، مجلة المناهل المغربية، العدد التاسع عشر، صفر 1401هـ - 1980م، ص، ص: 495 – 496.

[2] نفسه، ص: 496.

[3] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 164.

[4] نفسه، ص: 164.

➢ **كتب التفسير:** رجع القاضي عياض إلى طائفة غير قليلة من كتب التفسير إلا أنه لم يشأ أن يذكرها بأسمائها، وإنما اكتفى بذكر أصحابها والإشارة إليهم، كما أنه لم يذكر في مواضع أخرى في تلك الأسماء التي أشار إليها واكتفى بالقول "قال المفسرون" أو "اتفق المفسرون" وهكذا، وحالة ثالثة نراه ينسب التفسير إلى رجل متقدم عن جيل الصحابة أو التابعين دون أن يذكر المصدر الذي استقى منه.[1]

➢ **كتب الحديث:** هو كلام الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه وعن أحواله، وعن علاقته بربه، وعلاقته بالناس، وفي حديثه الشريف توضيح لسيرته، وتوضيح لرسالته، وتفسير للقرآن، وتوضيح للعقائد والآداب الإسلامية، وهو الذي يعرف المسلم بكل ما يتصل بنبيه صلى الله عليه وسلم من قول وفعل وتقرير ووصف في الحركات والسكنات، ويجعله يسعد بصحبته وكأنه يحضر مجالسه ويستمع لحديثه، وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم توضيح للأحكام وللأمور التشريعية.[2]

ولكل هذه الجوانب التي تناولتها السنة العطرة صلة بالحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وما تلاه من عصور لأن المسلمين التزموا بتطبيق السنة في حياتهم تطبيقا تاما، خاصة بعد أن نبههم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده.[3]

وقد أفاد القاضي عياض من مختلف أنواه كتب الحديث، وذكر بعضها مع ذكر مؤلفيها، ورجع إلى بعضها ناقلا منها أحاديثها وروايتها فقط دون أن يذكر اسم الكتاب، ولعل من أبرز هذه الكتب التي اعتمدها القاضي عياض في كتابه "الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم" وهي:[4]

الصحيحان للبخاري ومسلم [5]، ومسانيد أبي داوود والنسائي، وابن ماجه والترمذي، ومسند أحمد بن حنبل وغيرهم.[6]

---

[1] بدري محمد فهد، المرجع السابق، ص: 496.
[2] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 166.
[3] نفسه، ص: 166.
[4] بدري محمد فهد، المرجع السابق، ص: 507.
[5] الصحيحان البخاري ومسلم، أصح الكتب بعد القرآن الكريم، وقد تلقتهما الأمة بالقبول واتفق أهل العلم من لدن عصرهما على صحة ما فيها من الحديث المسند؛ ينظر: الحسين بن محمد شواط، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض، ص: 62.
[6] بدري محمد فهد، المرجع السابق، ص: 507.

وتجدر الإشارة إلى أن القاضي عياض كان في بعض المواضيع يكتفي بإيراد راوي الحديث (كابن عباس) أو غيرهما دون أن يذكر لنا المصدر الذي استقى منه.[1]

- **كتب الفقه:** أفاد القاضي عياض من كتب الفقه فنقل عنها أقوال الفقهاء المالكية ولاسيما إمامهم مالك بن أنس ومن بينها:

- كتاب الموطأ وقد رجع إليه ليأخذ من رأي الإمام مالك أو حديثه، إلا أنه في كثير من الأحيان ينقل عن مالك دون أن يذكر الموطأ أو أي مصدر آخر.
- كتاب المبسوط لمحمد بن مسلمة بن هشام بن الوليد بن المغيرة المتوفي سنة 216هـ.
- كتاب ابن سحنون أبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن سعيد التنوخي القيرواني، وتوفي بالقيروان سنة 256هـ.
- كتاب العتبية لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عتيبة بن أبي سفيان الأموي القرطبي العتيبي توفي سنة 254هـ.[2]

- **كتب اللغة والقراءات:** استعان القاضي عياض بمؤلفي كتب اللغة والقراءات، وكثير من هؤلاء كان يجمع بينهما، وقد رجع إليهم في تثبيت معنى من معاني الآيات التي أوردها أو لكي يشير إلى قراء من القراءات [3]، ومن بين هذه الكتب نذكر على سبيل المثال:" المبرد".[4]

- **كتب المغازي والسير:** وهذه الكتب تعنى بصفة أساسية بمغازي الرسول صلى الله عليه وسلم وحروبه، ولا تخلو من التمهيد لذلك بالحديث عن أشياء أخرى من حياته وتاريخ العرب، وقد كانت المغازي النبوية محط عناية المسلمين منذ الصدر الأول، وأظهرت هذه العناية واضحة عند الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.[5]

---

[1] بدري محمد فهد، المرجع السابق، ص: 511.

[2] نفسه، ص، ص: 504 – 505.

[3] نفسه، ص: 501.

[4] هو محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، والمتوفي سنة 285هـ، والمشهور بكتابه "الكامل في اللغة والأدب"، وقد ساق فيه أخبارا تتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم وخطبه وأحاديثه؛ ينظر: فاروق حمادة، المرجع السابق، ص: 146.

[5] نفسه، ص: 83.

إذ رجع القاضي عياض إلى أصحاب المغازي والسير ليلتقط من كتبهم بعض ما يتعلق بالسيرة العطرة، دون تطويل أو تفصيل بل كان اقتباسه يسيرا طفيفا يتلوه بالشرح والأحاديث، وقد انتهى القاضي عياض بذكر أسماء مؤلفاتهم في أحيان أخرى [1]، ومن بين هؤلاء نذكر:

موسى بن عقبة[2]، ابن إسحاق[3]، الراقدي[4]، وغيرهم.

وإضافة إلى هذه المصادر فإن القاضي عياض لم يشأ أن يذكر مصادره في مواضع أخرى من كتابه، إما لشهرة ما أورده وتداوله في كتب السيرة، أو لكون ما أورده من محفوظاته فاكتفى بالقول: "وحكى أهل السيرة" أو حكى بعض المعتنين بأخباره وشمائله.

إلى جانب ذلك نقل القاضي عياض بعض الحكايات في كتابه عن معاصريه كقوله: "وحكى عن بعض المريدين أنه لما أشرف على مدينة أنشأ......" أو "حكى أن قوما.....".[5]

قوما.....".[5]

---

[1] بدري محمد فهد، المرجع السابق، ص: 511.

[2] موسى بن عقبة المتوفي سنة 141هـ، فقد عده الأئمة الثقات من المتخصصين في هذا الفن فكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى يثني عليه، ويقول عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه ثقة؛ ينظر: فاروق حمادة، المرجع السابق، ص: 88.

[3] محمد بن إسحاق، فقد كان إمام هذا الفن أي فن السيرة لمن بعده على اختلافهم بلا منازع، فكتابه في "المغازي" كان المصدر الخصب، والمادة الأساسية لكل من يكتب أو يتحدث في السيرة، ونادرا ما تجد مؤلفا بعده يتعرض للسيرة ولا ينقل عن ابن إسحاق؛ ينظر: نفسه، ص: 89.

[4] محمد بن عمر الراقدي الأسلمي، ولد سنة 130هـ وتوفي سنة 207هـ ببغداد، سمع ابن أبي ذئب، ومعمر بن راشد، ومالك بن أنس وآخرين، يقول الخطيب البغدادي عنه: سارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم، والأحداث التي كانت في وقته وبعد وفاته؛ ينظر: نفسه، ص: 94.

[5] بدري محمد فهد، المرجع السابق، ص: 514.

الفصل الثالث

قيمة الكتاب وبيان أثره في الحركة العلمية في بلاد المغرب

الفصل الثالث: قيمة الكتاب وبيان أثره في الحركة العلمية في بلاد المغرب

المبحث الأول: مزايا الكتاب

نص الأئمة الأعلام والمشايخ الحفاظ أن كتاب "الشفا" هو أشهر كتب القاضي عياض رحمه الله تعالى وأجلها وأقدرها، وأكثرها فائدة، وأوسعها انتشارا، فهو مصنف بلغ النهاية في بابه، ولم يسبق إلى مثله، بل لم يصنف مثله متقدم ولا متأخر.

فلا غزو أن طارت شهرته في الآفاق، وتلقته الأمة بالقبول، وأثنى عليه العلماء المخلصون، والدعاة الصالحون، والمؤرخون المصنفون، وانتفع به الخاصة والعامة.

وعوتب القاضي عياض على كثرة صحبته لـ "الشفا" فرد عليهم بهذين البيتين:

قالوا: أراك تحب الشفا وتخبر فيه المصطفى

فقلت: إني عليل الفؤاد وكل عليل يحب الشفا [1]

أما ما قاله الأعلام عن الشفا فإنه يبين عظم هذا المؤلَّف:

- قال المقري في أزهار الرياض وهو يتكلم عن مؤلفات القاضي عياض "فمنها كتاب الشفا" الذي بلغ فيه الغاية القصوى، وكان فيه لضروب الإحسان مرتشف وحاز فيه قصب السبق، .... وطار صيته شرقا وغربا، وقد هجت به العامة والخاصة عجما وعربا، ونال به مؤلفه وغيره من الرحمان قربا[2] وفضائل هذا الكتاب لا تستوفي ويرحم الله القائل:

كلهم حاولوا الدواء ولكن ما أتى بالشفاء إلا عياض

ولا يمتري من سمع كلامه السهل المنور في وصف النبي صلى الله عليه وسلم أو وصف إعجاز القرآن العظيم، إن تلك نفحة ربانية ومنحة خص بها الله عز وجل هذا الإمام وحلاه بها.[3]

- وقال الحافظ بن العماد الحنبلي المتوفي سنة 1089 هـ في كتابه "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ومن مصنفاته: الشفا الذي لم يُسْبَقْ إلى مثله.[4]

- وقال العلامة حاجي خليفة المتوفي سنة 1067هـ في كتابه كشف الظنون "... وهو كتاب عظيم النفع كثير الفائدة لم يؤلف مثله في الإسلام شكر الله سبحانه وتعالى سعي مؤلفه وقابله برحمته وكرمه.

---

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 10.
[2] أحمد المقري، أزهار الرياض، ج4، ص: 271.
[3] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 328.
[4] القاضي عياض، الشفا، ص: 11.

قال بعض الأدباء في مدحه:

عوضت جنات عدن يا عياض عن الشفاء الذي ألفته عوض

جمعت فيه أحاديثا مصححة فهو الشفا لم في قلبه مرض [1]

- وقال العلامة الخفاجي المتوفي سنة 1069هـ في "نسيم الرياض" وإن كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، كتاب قدره جليل وهو على جلالة مصنفه أدل دليل.

- وقال العلامة علي بن أحمد الحريشي المتوفي سنة 1143هـ في كتابه "الفتح الفياض" كتاب لم تسمع قريحة بمثله، ولا نسج فاضل على منواله.[2]

- وقال العلامة علي القارئ عن الشفا "أجمع ما صنف في بابه".

- وقال الشيخ الحافظ أحمد بن محمد بن سعيد التلمساني "تواليف القاضي عياض رحمه الله تعالى دالة على ما له عند الله تعالى من الكرامة والعناية، فمن تأمل انتفاع المسلمين به شرقا وغربا علم ذلك من أسرار القرب والولايةّ، وكتابه الشفا هو وسطى القلادة وسر نتاج السعادة.

- ويقول أستاذنا الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة في كتابه السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة[3]، وهو يتكلم عن قصة الغرانيق [4]، وباطل نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصة زواجه من السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، يقول: "ومما ينبغي أن يعلم أن هاتين القصتين الباطلتين، وغيرهما من القصص الباطلة، والمرويات الموضوعة، قد سبق إليها بعض الأئمة الكبار، الذين جمعوا بين علم العقول، والعلم المنقول، ويكاد يكون في القمة من هؤلاء الإمام الحافظ الأصولي، العلامة أبو الفضل القاضي عياض بن موسى الأندلسي المتوفي سنة أربعين وخمسمائة، فقد ألف كتابه "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" وهو كتاب لو كتب بالذهب لكان قليلا عليه، وهو إن لم يكن كتاب سيرة بالمعني المعروف إلا أنه اشتمل على كثير مما يتعلق بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، مع رد بعض الأباطيل

---

[1] خليفة حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، لبنان، (د.ت)، مج2، ص: 1053.

[2] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 11.

[3] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 328 – 329.

[4] الغرانيق في الأصل: الذكور من الطيور، سمي بها لبياضه، والغرنوق أيضا: الشاب الأبيض، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله، وتشفع لهم، فشبهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع؛ ينظر: أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 402.

التي دست في السيرة النبوية، وألصقت بها زورا كهاتين القصتين، فالزمه أيها القارئ واشدد به يدك".[1]

- يقول أحمد جمال العمري في كتابه "السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض" عن قصة الغرانيق "وهي ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة النجم" وقال: "أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى".[2]

قال: تلك الغرانيق العلي، وإن شفاعتها ترجى

.... فلما ختم السورة سجد، وسجد معه المسلمون والكفار لما سمعوه أثنى على آلهتهم، وما وقع في بعض الروايات أن شيطانا ألقاها على لسانه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمنى أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه، فلما ألقى ذلك الشيطان حزن صلى الله عليه وسلم لذلك[3]، فأنزل الله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".[4]

والصحيح في تفسير هذه الآية كما يقول القاضي عياض: "أن الله سبحانه وتعالى ما أرسل من رسول، ولا بعث نبيا من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته، ويحبه لهم، ويرغب فيه، ويحرص عليه غاية الحرص".[5]

- وقال العلامة المؤرخ إبراهيم بن علي بن فرحون المتوفي سنة 899هـ في كتابه "الديباج المُذَهَّب في معرفة أعيان المذهب" أبدع فيه أي الشفا كل الإبداع، وسلم له أكفاؤه كفايته فيه، ولم ينازعه أحد في الانفراد به، ولا أنكروا مزية السبق إليه، بل تَشَوَّفُوا الوقوف عليه، وأصنفوا في الاستفادة منه، وحمل الناس عنه، وطارت نسخه شرقا وغربا".[6]

- وقال العلامة محمد بن عبد الحي الكتاني المغربي المتوفي سنة 1382هـ في كتابه "فهرس الفهارس" وجدت بخط قديم بهامش: "النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المفاخر والمناقب" لابن صعد التلمساني: "قال بعض الشيوخ، كانت الشمس تطلع على الناس من

---

[1] محمد بن محمد أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، دار القلم، دمشق، 1412هـ - 1992م، ط2، ج1، ص، ص: 39 – 40.
[2] النجم، الآيتين 19 - 20.
[3] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 402.
[4] الحج، الآية 50.
[5] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص، ص: 402 – 403.
[6] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 328.

المشرق، وتغرب في المغرب، وجاءنا نحن أهل المشرق شمس أخرى من المغرب الأقصى، وهي كتاب الشفا لعياض".[1]

- وقال العلامة سليمان الندوي: "وأما ما تحلت به نفسه من دماثة الخلق ورجاجة العقل، وحصافة الرأي وكرم النفس، وعلو الهمة، ورجاجة الصدر صلى الله عليه وسلم، فإن كتب الحديث مليئة بتفاصيله، وأحسن كتاب في ذلك كتاب (الشفا) للقاضي عياض الأندلسي، وقد قال لي يوما وأنا في فرنسا متشرق اسمه ماسينيون [2]، يكفي لتعرف أوروبا محاسن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ومحامده أن ينقل كتاب (الشفا) للقاضي عياض إلى إحدى اللغات الأوروبية.[3]

- وقال العلامة محمد بن مخلوف في "شجرة النور الزكية": "الشيخ الإمام قاضي الأئمة وشيخ الإسلام وقدوة العلماء الأعلام عمدة أرباب المحابر والأقلام والفضائل التي أشعلت رسومها فلم تحتاج إلى أعمال الأعلام الشائع الصيت في كل قطر ومصر، وسارت مآثره مسير الشمس والقمر، المتبحر في العلوم، حامل لواء المنثور والمنظور مع يقظة وفهم، شهرته تغني بالتعريف به، ..... ألف التآليف المفيدة البديعة منها إكمال المعلم في شرح مسلم والشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبدع فيه كل الإبداع وحمله الناس عنه وطارت نسخه شرقا وغربا".[4]

- وقال محقق كتاب الشفا عبده علي كوشك: "والكتب المصنفة في سيرته صلى الله عليه وسلم تشمل تفاصيل حياته صلى الله عليه وسلم العامة والخاصة، فهي تحدثنا عن: أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته، وشمائله الخَلْقِية والخُلُقِية، وخصائصه، ومعجزاته ودلائل نبوته، وغزواته وسراياه، وملاحمه وكل شأن جليل أو دقيق من شؤون حياته صلى الله عليه وسلم، وكتابنا هذا أجمع وأجل مصنف يبحث في شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم وقدره العظيم، ومنصبه الجليل".[5]

---

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص، ص: 11 – 12.

[2] لويس ماسينيون Louis Massignon: ولد بباريس 1299هـ - 1883م، توفي بها سنة 1962م، متشرق فرنسي من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، عنى بالآثار القديمة وأدت مشاركته في التنقيب عنها بالعراق (1907 – 1908) إلى اكتشاف قصر الأخيضر؛ ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمتشرقين، دار العلم للملايين، لبنان، 2002، ط15، ج5، ص: 247.

[3] سليمان الندوي، الرسالة المحمدية، دار ابن كثير، دمشق، 1423هـ - 2002م، ط1، ص: 96.

[4] محمد مخلوف، المرجع السابق، ج1، ص: 25.

[5] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 08.

- وما قاله الأعلام عن الشفا كثير، وهو يكشف لنا عن معاني كثيرة ومميزات عدة قد تميز بها كتاب الشفا، أوضحها أن الشفا قد نسج على غير منوال، كما شهد بذلك غير واحد ممن ذكرنا أقوالهم، وأنه أجمع ما ألف في موضوعه وهذا واضح وجلي في كلام العلامة ابن فرحون وحاجي خليفة.[1]

وكما قلنا من قبل أن جلالة الشفا جاءت أولا من جلالة موضوعه، وهو شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وحقوقه، كما أن مؤلفه أحسن فيه التصنيف وأجاد التأليف.[2]

ولم يقف احتفاء العلماء بالشفا في حد المنثور بل مدحه الأعلام شعرا وتناقله الناس وسارت به الركبان.[3]

المبحث الثاني: مآخذ الكتاب

قلما يخلو كتاب مهما تنوق المصنف في تحبيره، وبالغ في تحريره وتحسينه، من مآخذه في جانب من جوانبه، إذ أن العصمة للأنبياء والرسل وحدهم ولدى الدراسة والبحث تبين أن المآخذ على كتابنا تنحصر في ثلاثة أمور:

- أولا: الغلو والمبالغة في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.
- ثانيا: أنه محشو بالأحاديث المفتعلة والواهية.
- ثالثا: فيه تأويلات بعيدة.

نجد **المأخذ الأول**[4] لشيخ الإسلام ابن تيمية[5]، حيث سأل هذا الأخير "عن رجل قال: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكبائر دون الصغائر، فكفره رجل بهذه، فهل قائل ذلك مخطئ أم مصيب؟ وهل قال أحدهم بعصمة الأنبياء مطلقا؟ وما الصواب من ذلك فأجابه: الحمد لله رب العالمين، ليس هو كافر باتفاق أهل الدين، ولا هذا من مسائل السب المتنازع في استتابة قائله بلا نزاع، كما صرح بذلك القاضي عياض وأمثاله مع مبالغتهم في

[1] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 329.
[2] نفسه، ص: 329.
[3] ينظر: الملحق الخاص بهذه الدراسة، ص، ص: 93 – 95.
[4] القاضي عياض، الشفا، ص: 13.-
[5] هو شيخ الإسلام، الإمام الحجة، اشتهر بشيخ الإسلام وبابن تيمية، وبإمام الدنيا في زمانه، المكنى بأبي العباس أحمد ابن الشيخ الإمام المفتي شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم ابن الشيخ مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد عبد الله، ولد في يوم الإثنين 10 ربيع الأول 611هـ، المتوفي ليلة الإثنين 20 ذي القعدة 728هـ؛ ينظر: بكر بن عبد الله بوزيد، المداخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، 1428هـ، ط1، ص: 15.

القول بالعصمة وفي عقوبة الساب...." [1]، وقد استشنعه، ولم يرضه، الحافظ الإمام العلامة عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس، حيث قال: "ومن أشنع ما نقل عن ابن تيمية أيضا قوله في حق شفاء القاضي عياض: غلا هذا المغيربي".[2]

وقد سبقه في رد هذا المأخذ شيخ الإسلام بإفريقية الإمام أبو عبد الله بن عرفة التونسي[3]:

شفاء عياض في كمال نبينا كواصف الشمس ناظر قرصتها [4]

أما **المأخذ الثاني** فهو[5] للحافظ العلامة شمس الدين الذهبي، فقد قال في سير أعلام النبلاء النبلاء في ترجمته للقاضي عياض " ..... تواليفه نفسية، وأجلها وأشرفها كتاب (الشفا) لولا ما قد حشاه بالأحاديث المفتعلة، عمل إمام لا نقد له في فن الحديث ولا ذوق والله يثيبه على حسن قصده، وينفع به شفائه، وقد فعل، وكذا وفيه من التأويلات البعيدة الألوان، ونبينا صلوات الله وسلامه غنى بمدحه التنزيل عن الأحاديث، وبما تواتر من الأخبار عن الآحاد، وبالأحاديث النظيفة الأسانيد عن الواهيات، فلماذا يا قوم نتشبع بالموضوعات، فيتطرق إلينا مقال ذوي الغل والحسد، ولكن من لا يعلم معذور، فعليك يا أخي بكتاب "دلائل النبوة" للبيهقي، فإنه شفاء، لما في الصدور وهدى ونور".[6]

ونحن نقر أن في الشفا أحاديث ضعيفة، وأخرى موضوعة اتبع فيها "شفاء الصدور" للخطيب أبي الربيع: سليمان بن سبع السبتي، لكنا لا نوافقه أنه محشو بالأحاديث المفتعلة والواهية، ويكفي في رد ذلك ما قاله العلامة محمد بن جعفر الكتاني في الرسالة المستطرفة[7]، (وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي... وفيه أحاديث ضعيفة وأخرى قيل أنها موضوعة.... ولم ينصف الذهبي في قوله أنه محشو بالأحاديث الموضوعة والتأويلات الواهية الدالة على قلة نقده مما لا

---

[1] أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجمع فتاوي شيخ الإسلام بن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425هـ - 2004م، ج4، ص: 319.

[2] عبد الحي الكتاني، المرجع السابق، ج1، ص: 278.

[3] هو الإمام العلامة المقرئ المحدث: أبو عبد الله بن محمد بن عرفة الورغمي، والورغمي نسبة إلى قبيلة ورغمة القاطنة جنوب تونس، ولد سنة 27 رجب 716هـ الموافق لـ 16 أكتوبر 1316م، وتوفي سنة 748؛ ينظر: محمد بن عرفة الورغمي التونسي، المختصر الفقهي، تح: حافظ عبد الرحمان محمد خير، مسجد ومركز الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، 1435هـ - 2014م، ط1، ج1، ص: 11.

[4] المقري، أزهار الرياض، ج5، ص: 9.

[5] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 13.

[6] الذهبي، المصدر السابق، ج20، ص: 79.

[7] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، ص: 14.

يحتاج قدر النبوة له فإنه تحامل منه لا ينبغي كما قال غير واحد بل هو كتاب عظيم النفع كثير الفائدة.....).[1]

أما **المأخذ الثالث** فهو للذهبي كما ذكرنا، ويكفي في رده أن القاضي عياض يذكر التأويلات البعيدة بعد ذكر الأقوال الراجحة في المسألة الواحدة، ولا ضير عليه في ذلك، فمن الأمانة العلمية أن يذكر المحقق الأقوال جميعها في المسألة، ثم يختار منها القول الصحيح المقبول، ويدع المُعَلَّ المردود.[2]

ويذكر البشير حمد الترابي في كتابه "القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية" بعد ساق لنا ما قاله الأعلام عن كتاب الشفا وقبولهم له (إذ كان هؤلاء الأعلام الثقات من الحفاظ والعلماء فقد نعتوا الشفا بهذه النعوت التي سقناه وقيموه، وجعلوه في قمة المصنفات فلا بد لنا قبل أن نختم كلامنا على الشفا من أن نتصدى لقول بعض المبالغين الذين اعتادوا أن يقللوا من قيمة الشفا، وذلك بدعواهم أنه مليء بالموضوعات.

ونحن لا ننكر أن في الشفا أحاديث موضوعة، وأخرى منكرة، اما القول بأنه مليء بالموضوعات فقول فيه كثير من التهجم والمغالاة.[3]

ومن طالع كتاب المنهل الأصفي في تخريج أحاديث الشفا للإمام السيوطي يتبين له أن ما يشاع من أن الشفا مليء بالموضوعات أمر لا أساس له من الصحة.

ففي مطالعتي في كتاب السيوطي هذا وجدت أن الأحاديث يقطع السيوطي بأنها موضوعة قليلة جدا.

هذه القلة القليلة لا تبرر الحكم الكاسح الذي يصدره البعض بأن الشفا مليء بالموضوعات ولا تبرر التقليل من قيمة الشفا، فقد اشتمل على أحاديث كثيرة من أصح الصحيح.

ويا حبذا لو تجرد لتخريج أحاديثه نخبة من علمائنا الأبرار وخرجوا أحاديثه مستعينين بتخريج السيوطي، وبعض شرائح الشفا، إذا لتمت الفائدة وعظم النفع.[4]

---

[1] محمد بن جعفر الكتاني، الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ت)، ص: 79.

[2] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 14.

[3] البشير حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 331.

[4] نفسه، ص: 331.

المبحث الثالث: شروح الشفا ومختصراته وطبعاته

لقد حظي الشفا بعناية العلماء في المشرق والمغرب، فأقبلوا عليه يتدارسونه ويشرحونه ويختصرونه، وهذه العناية التي حظي بها الشفا إنما ترجح أولا إلى أنه يتناول موضوعا له المكان الأسمى في النفوس المؤمنة، إذ أنه يتناول ذات الرسول صلى الله عليه وسلم، ولأن مؤلفه كان بحق أجاد وأفاد في هذا الموضوع لعلمه الغزير ومعرفته الواسعة، ثم محبته العميقة للرسول صلى الله عليه وسلم، فجاء كتابه الشفا شفاء وعلما انكب عليه طلاب العلم في كل مكان، وتولاه العلماء بالعناية.[1]

وسنبدأ أولا بذكر شروحه ثم مختصراته وطبعاته.

أولا: شروحه

1 - **الاصطفا لبيان معاني الشفا:** للعلامة شمس الدين بن محمد الدلجي المتوفي بالقاهرة سنة (947هـ - 1540م).

2 - **الاكتفا في شرح ألفاظ الشفا:** للإمام تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليمني المتوفي بالقاهرة سنة (743هـ - 1343م).

3 - **الانتهاض في ختم الشفا للقاضي عياض:** للحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمان السخاوي المتوفي بالمدينة المنورة سنة (902هـ - 1497م).

4 - **إيضاح اللبس والخفا عن ألفاظ الشفا:** للحافظ عبد الله بن أحمد الزموري المغربي المتوفي بعد سنة (888هـ - 1483م).

5 - **خلاصة الوفا في شرح الشفا:** للقاضي إبراهيم حنيف بن مصطفى الرومي المتوفي سنة (1199هـ - 1785م).[2]

6 - **زبدة الحقائق وعمدة الدقائق:** للعالم المفسر مصطفى بن إسماعيل الفيلورنوي المتوفي سنة (1244هـ - 1828م).

7 - **زبدة المقتفى في تحرير ألفاظ الشفا:** للمحدث المقرئ محمد بن خليل القباقبي الحلبي المتوفي ببيت المقدس سنة (849هـ - 1445م).

---

[1] البشير حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 320.

[2] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 15.

8 - شرح **لكمال الدين محمد بن أبي شريف القدسي** المتوفي سنة (651هـ).

9 - شرح للعلامة الإمام **محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الأكبر** المتوفي بالقاهرة سنة (781هـ - 1380م)[1]، ويبدو أنه العمل الخاص الذي يعتز به ابن مرزوق على الرغم من أنه لم ينته منه.[2]

10 - شرح لشهاب الدين أحمد بن الحسين بن أرسلان الرملي المتوفي سنة (844هـ - 1440م)، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (ج 1054/2)، وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي (ج271/2)، ومنه نسخة خطية في المكتبة الظاهرية بدمشق (6345)، وطبع هذا الكتاب بمصر سنة (1276هـ) مطبعة حجرية وبهامشه المدد الفياض.

11 - شرح لشمس الدين الحجازي: يرجع إلى حدود سنة (850هـ - 1447م) ذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (ج269/6) وله مخطوط في برلين برقم (2564).

12 - شرح ألفاظ الشفا للعلامة الفقيه إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن جماعة الكتاني المتوفي بالقدس سنة (861هـ - 1457م) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (ج1053/1) و الزركلي في الأعلام (ج308/1).[3]

13 - شرح للمؤرخ أبي ذر أحمد بن إبراهيم يقال له سبط بن العجمي المتوفي في حلب سنة (884هـ - 1470م)، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (ج1054/2).

14 - شرح لقطب الدين عيسى بن محمد الأيجي الصفوي المتوفي سنة (953هـ - 1546م)، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (ج 1054/2)، وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي (ج272/6).[4]

15 - شرح للعالم الفقيه مُلا علي بن السلطان محمد القاري ، وهو من الشروح المطبوعة، ومن طبعاته طبعة مطبعة سندة بتركيا سنة 1309هـ، وهو من الشروح المفيدة جدا في فهم الشفا.[5]

---

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 16.

[2] محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 48.

[3] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 16.

[4] نفسه، ص: 17.

[5] البشير حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 323.

قال القارئ في مقدمة شرحه "لما رأيت كتاب الشفاء في شمائل صاحب الاصطفاء، أجمع ما صنف في بابه مجملا في الاستيفاء لعدم إمكان الوصول إلى انتهاء الاستقصاء، قصدت أن أخدمه بشرح يشرح بعض ما يتعلق به من تحقيق الإعراب والبناء.....".[1]

وشرح على القارئ يتميز بأنه اعتنى به بضبط الكلمات المفردة أولا ثم بعد ذلك يشرح شرحا مبسطا يوضح المعنى بغير إسهاب ولا إطناب مخل.[2]

16 - شرح للحافظ محمد عبد الرؤوف المناوي صاحب "فيض القدير" المتوفي بالقاهرة سنة (1031هـ - 1622م)، وهذا الشرح لم يتم، ذكره الكتاني في فهرس الفهارس (ج562/2)، وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي (270/6).

17 - شرح لزين الدين بن أحمد الحلبي الإشعافي المتوفي سنة (1042هـ - 1632م)، دكره حاجي خليفة في كشف الظنون (ج 1054/2)، والزركلي في الأعلام (ج64/3).

18 - شرح للفقيه يوسف بن أبي الفتح الدمشقي المتوفي سنة (1056هـ - 1646م).

19 - شرح للحاج نجيب العيثابي المدرس بالمدينة المنورة، المتوفي سنة (1219هـ - 1804م).[3]

20 - شرح للشيخ أبي عمران موسى بن محمد الراحل المتوفي سنة (1140هـ)، توجد مخطوطة منه بالخزانة العامة بالرباط تحت الرقم (2141/د)[4]، ذكره الدكتور البشير علي حمد الترابي في كتابه القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية.[5]

21 - شرح للعلامة المحدث محمد بن أحمد الجزولي الحُضيكي المتوفي سنة (1189هـ - 1775م)، ذكره الكتاني في فهرس الفهارس (352/1) والزركلي في الأعلام (15/6).

---

[1] علي القاري الهروي الحنفي، شرح الشفا للقاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ - 2001م، ج1، ص: 09.

[2] البشير حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 324.

[3] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 17.

[4] نفسه، ص: 17.

[5] البشير حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 322.

22 - شرح للنعماني ذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (272/6).

23 - شرح لمصطفى بن محمد الرحمتي الدمشقي المتوفي سنة (1205هـ - 1791م)[1]، ذكره الكتاني في فهرس الفهارس فقال: "اختصر شفاء القاضي عياض اختصارا جليلا وشرحه بشرح لم تكتمل عين الزمان بمثله تحريرا وتحبيرا.[2]

24 - شرح لعلامة الشام، المحدث الأكبر، **لشيخ بدر الدين** محمد بن يوسف الحسن المراكشي المتوفي بدمشق سنة (1354هـ - 1935م)، ذكره الزركلي في الأعلام (158/7).

25 - الصفا بتحرير الشفا لقطب الدين محمد بن الخيضري الدمشقي الشافعي المتوفي بالقاهرة سنة (894هـ - 1489م)، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (1055/2).

26 - غاية الوفا في ختم الشفا للمؤرخ المحدث الفقيه شمس الدين بن علي المعروف بابن طولون الدمشقي الصالحي المتوفي سنة (953هـ - 1546م).

27 - الغنية للحافظ الفقيه المحدث أبي عبد الله محمد بن الحسن بن مخلوف الراشدي التلمساني المعروف بأبركان (ومعناها بالبربرية: الأسود) المتوفي سنة (868هـ - 1464م).

وهذا الحافظ وضع على الشفا ثلاثة شروح، قال حاجي خليفةفي كشف الظنون (1053/2)، الأول: كبيره "الغنية" في مجلدين، والثاني: غنية الوسطى، وآخر أصغر منه جرما".

28 - فتح الصفا بشرح معاني ألفاظ الشفا للشيخ الإمام علي بن محمد بن أقبرس المتوفي بالقاهرة سنة (862هـ - 1458م)، ذكره البغدادي في إيضاح المكنون (166/2)، والزركلي في الأعلام (9/5)، وقال: "ثلاثة أجزاء، لم يقتصر فيه كشف معاني الألفاظ اللغوية، بل تجاوزها إلى مباحث في الكلام والتفسير والأصول.

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 18.

[2] عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1402هـ - 1982م، ط2، ج1، ص: 424.

29 - فتح الغفار بما أكرم الله به نبيه المختار ، للشيخ المحدث الفقيه عمر بن عبد الوهاب الشافعي الحلبي المتوفي بحلب سنة (1024هـ - 1615م)، ذكره البغدادي في إيضاح المكنون [1] (168/2)، وحاجي خليفة في كشف الظنون (1054/2)، والزركلي في الأعلام (45/5)، والكتاني في فهرس الفهارس، إذ يقول: "ومن أعظم مؤلفاته (شرح الشفا) اشتغل به نحو اثني عشر سنة". [2]

30 - فتح الفياض لأبي الحسن علي بن أحمد الفاسي المريش المتوفي سنة (1143هـ)، وهذا الشرح أيضا مخطوط لم يطبع وجدت منه نسخة بالخزانة العامة بالرباط برقم 1701/د، في مجلد كبير فيه 367 صفحة، قال المريش في مقدمته: (..... إن كتاب الشفا لعلم الأعلام، وتاج الإسلام الجهيذ الهمام، الحافظ الحجة الإمام أبي الفضل عياض بن موسى... كتاب لم تسمح قريحة بمثله ولا نسج فاضل على منواله، فأعجب ما أتى فيه من البيان في أكمل من كل الإنس والجان... وفيه ألفاظ مغفلة تحتاج لمزيد إيضاح، وبيان وإفصاح).

وهو قد اعتمد في الغالب على شرح الخفاجي، وقد أطال النفس في أول الشرح، واختصر في آخره غاية الاختصار، وشرحه عموما مفيد. [3]

31 - لقط ندا الرياض للعلامة المحدث محمد بن عبد السلام البناني الفاسي المتوفي سنة (1163هـ - 1750م)، ذكره الكتاني في فهرس الفهارس (224/1)، والزركلي في الأعلام (206/6)، وذكره البغدادي في هدية العارفين (327/2)، وفي إيضاح المكنون (52/2، 407).

32 - المدد الفياض على متن الشفا للقاضي عياض ، للشيخ الفقيه حسن العدوي العزاوي المتوفي بالقاهرة سنة (1303هـ - 1886م)، ذكره البغدادي في إيضاح المكنون (455/2)، وذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (271/6) باسم "المدد الفياض بنور الشفا للقاضي عياض"، وهذا الكتاب طبع بالقاهرة في مجلدين سنة (1276هـ)، منه نسخة خطية بمكتبة الأزهر برقم (556) خصوصية.

---

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص، ص: 18 – 19.
[2] عبد الحي الكتاني، المرجع السابق، ج2، ص: 792.
[3] البشير حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 324 – 325.

33 - مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا للمحدث المفسر النحوي أبي العباس تقي الدين أحمد بن محمد الشمي المتوفي بالقاهرة سنة (872هـ - 1468م)، وقد طبع في استامبول والقاهرة ودار الكتب العلمية، ودار الفكر بيروت، ومنه نسخة خطية بدار الكتب برقم (375، 328، 746، 1450).

34 - مفتاح الشفا للعلامة أبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي المتوفي سنة (1096هـ)، ذكره الزركلي في الأعلام (310/3)، وقال ذيل به في كتاب الشفا في مجلدين[1]، وقال الكتاني في فهرس الفهارس "له في الفن (مفتاح الشفا) جارك به شفاء القاضي عياض في نحو مجلدين، وهو كتاب واسع النقل كبير الإفادة يدل على سعة حوصلة مؤلفه".[2]

35 - المقتفي في ضبط ألفاظ الشفا للحافظ الفقيه برهان الدين إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الحلبي المعروف ببسط بن العجمي المتوفي بحلب سنة (731هـ - 1438م)، ذكره الكتاني في فهرس الفهارس (222/1)، وحاجي خليفة في كشف الظنون (1054/2)، والزركلي في الأعلام.

36 - منهج الوفا بشرح الشفا للفقيه أحمد بن خليل السبكي المتوفي بمصر سنة (1032هـ - 1623م)، ذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (271/6)، وذكره البغدادي في هدية العارفين (155/1) بعنوان: "منهج الخفا في شرح الشفا".[3]

37 - المنهل الأصفى في شرح ما تمس الحاجة إليه من ألفاظ الشفا لمؤلفه أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي شريف الحسن التلمساني، وهذا الشرح مخطوط في مجلدين، وجدت نسخة منه بمكتبة الأزهر الشريف برقم (466) خاص، كتبت بخط جيد بقلم عبد القادر بن محمد بن عمر الأصيلي، فرغ من نسخها سنة 1030هـ.[4]

ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (270/6)، وبروكلمان (270/6)، قال حاجي خليفة "وهو من أجود شروح الشفا".

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص، ص: 19 – 20.
[2] عبد الحي الكتاني، المرجع السابق، ج2، ص: 735.
[3] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص، ص: 20 – 21.
[4] البشير حمد الترابي، المرجع السابق، ص، ص: 322 – 323.

38 - موارد الصفا وموائد الشفا للعالم المؤرخ رضي الدين محمد بن إبراهيم الحلبي، المعروف بابن الحنبلي المتوفي سنة (971هـ - 1563م)، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (1053/2) والبغدادي في إيضاح المكنون (598/2)، وفي هدية العارفين (248/2).

39 - نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض لشهاب الدين احمد بن محمد بن عمر الخفاجي المتوفي بمصر سنة (1069هـ - 1659م))، وهو مطبوع في أربعة مجلدات في استامبول والقاهرة سنة (1327هـ)، ولأجزائه نسخ خطية في مكتبة الأسد بدمشق من رقم (915) ولغاية الرقم (926).

40 - الوفا في شرح الشفا للأديب أبي عبد الله محمد التجاني المتوفي بعد سنة (711هـ - 1311م)، ذكره البغدادي في هدية العارفين (142/2)، والزركلي في الأعلام (324/5).[1]

ثانيا: مختصراته

1 - اختصره الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن علي بن عمر الإسنوي الشافعي المتوفي بمكة سنة (763هـ - 1362م)، ذكره ابن العماد في شذرات الذهب (198/6)، وحاجي خليفة في كشف الظنون (1053/2، 1054).

2 - واختصره النحوي الفقيه محمد بن الحسن بن محمد المالقي بكتاب سماه "لباب الشفا"، ذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (273/6).

3 - واختصره ابن الأخيضر بكتاب سماه "الوفا"، قال حاجي خليفة في كشف الظنون (1055/2)، وجلال الدين أحمد بن محمد الخجندي الحنفي المتوفي بالمدينة المنورة سنة (802هـ).

4 - واختصره مؤلف مجهول يرجع إلى حدود سنة (900هـ - 1494م)، ذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (269/6).

5 - واختصره محمد بن طولون الصالحي المتوفي سنة (953هـ - 1546م)، ذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (269/6).[2]

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 21.
[2] نفسه، ص: 22.

6 - واختصره الشيخ الفقيه عبد الله بن علي سويدان، وقد سمي مختصره هذا الوفا بالتنبيه على بعض حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم المأخوذة من كتاب الشفا.

والكتاب مخطوط وجدت منه نسخة بمكتبة الأزهر الشريف في مجلد فيه (76) ورقة سعة (15) سطرا، وقد فرغ منه ناسخه في سنة 1231هـ.[1]

7 - واختصره الشيخ القاضي الفقيه محمد مكي بن مصطفى بن محمد بن عزوز التونسي المتوفي سنة (1334هـ - 1916م) وهذا المختصر لم يتم، ذكره الشيخ الكتاني في فهرس الفهارس (860/2).

8 - واختصره أيضا الشيخ الفقيه مصطفى بن محمد الرحمتي الدمشقي المتوفي بين مكة والطائف سنة (1205هـ - 1791م) قال الكتاني في فهرس الفهارس (424/1): "اختصر شفاء القاضي عياض اختصارا جليلا" ، ذكره في معجم المؤلفين (277/12)، وفي الأعلام (241/7).

9 - واختصره أيضا مجهول، منه نسخة خطية في مكتبة الأسد بدمشق برقم 913.[2]

ثالثا: طبعاته ومخطوطاته

الشفا كتاب واسع الانتشار، ذائع الصيت، يعرفه كثير من العامة فضلا عن الخاصة، ويدرس في أكثر من معهد علمي، لذلك طبع في عدد لا بأس به من بلدان العالم الإسلامي: في مصر وسورية ولبنان والمغرب، وتركيا والهند.

وأفضل طبعاته طبعة دار الكتاب العربي بيروت، بتحقيق الأستاذ الفاضل علي محمد البجاوي، وهي على جودتها بحاجة إلى إعادة نظر، استدراك نقص، وإصلاح خطأ، وتقويم تحريف.

وللشفا مخطوطات كثيرة جدا، تعد بالمئات، موزعة في مكتبات العالم، وسنحاول ذكر البعض منها:

1 - يذكر محقق كتاب الشفا عبده علي كوشك وهي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة أنه أحصى له بنفسه في مكتبة الأسد 47 مخطوطة.

2 - وفي مصر توجد منه 49 مخطوطة في مكتبة الأزهر، و 32 مخطوطة في دار الكتب.

[1] البشير حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 326.
[2] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص، ص: 22 – 23.

3 -وفي المغرب توجد أكثر من 100 مخطوطة في الخزانة الملكية بالرباط، ومثلها بالخزانة العامة بالرباط أيضا.

يذكر عبده علي كوشك أنه لما أراد خدمة هذا الكتاب الطيب، وإخراجه محقق، توفرت له منه صورة ضوئية، لنسخة خطية، فائقة الجودة، هذه المخطوطة رقمها (120)، عندما كانت في المكتبة الظاهرية، وأعطيت الرقم (911) لما انتقلت إلى مكتبة الأسد بدمشق.

تتألف هذه النسخة من 223 ورقة، في كل ورقة صفحتان مقاس (29 x 20 سم)، 5 سم حاشية.

ثم الفراغ من كتابتها آخر النهار، يوم الاثنين 12 رجب سنة (744هـ) بدمشق، على يد محمد بن أحمد بن عبد الملك بن رمضان بن محمود الحاج الحنفي الرومي المليفدوني.[1]

هذه بعض شروح الشفا ومختصراته ولاشك أنها كثيرة مما يدل على مكانة الشفا في نفوس سادتنا العلماء الأبرار[2]، ولا يفوتنا أن نذكر:

1 - الكتب المؤلفة في تخريج أحاديث الشفا:

- تخريج أحاديث الشفا للإمام الشيخ قاسم بن قطلوبغا المتوفي بالقاهرة سنة (879هـ - 1474م)، ذكره الكتاني في فهرس الفهارس (972/2)، والشهاب الخفاجي في نسيم الرياض (15/2).[3]
- تخريج أحاديث الشفا لعبد العزيز الزبيدي، ذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (273/6).
- مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا للسيوطي، مطبوع عدة طبعات.
- تكميل مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا للشيخ المحدث إدريس بن محمد العراقي الفاسي المتوفي سنة (1183هـ - 1769م)، ذكره الكتاني في فهرس الفهارس (717/2).

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص، ص: 24 – 25.
[2] البشير حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 326.
[3] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 23.

2 - الكتب المؤلفة في المنتقى من أحاديث الشفا:

- أربعون حديثا منتقاة من كتاب الشفا، انتقاها المحدث محمد بن طغريل بن عبد الله المتوفي سنة (737هـ - 1336م).
- جزء الأحاديث المسندة في الشفا، قال العلامة عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس (575/2): "والأحاديث المسندة في الشفا جميعها ستون حديثا".[1]

3 - ترجمته إلى اللغات العالمية:

- للشفا ترجمة فارسية، كما في كتاب الثقافة الإسلامية في الهند للعلامة عبد الحي الحسين والد العلامة الداعية أبي الحسن الندوي.
- وله شرح بالتركية قام به القاضي إبراهيم بن حنيف الرومي المتوفي سنة (1199هـ - 1785م)، ذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي (272/6).[2]

المبحث الرابع: أثر الكتاب في الحركة العلمية في بلاد المغرب

تجمع السيرة النبوية عدة مزايا تجعل دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية، كما تجعل هذه الدراسة ضرورية لعلماء الشريعة والدعاة إلى الله والمهتمين بالإصلاح الاجتماعي، ليضمنوا إبلاغ الشريعة إلى الناس بأسلوب يجعلهم يرون فيها المعتصم الذين يلوذون به عند اضطراب السبل واشتداد العواصف، ولنفتح أمام الدعاة قلوب الناس وأفئدتهم، ويكون الإصلاح الذي يدعو إليه المصلحون، أقرب نجاحا وأكثر سدادا، ونجمل فيما يلي أبرز

مزايا السيرة النبوية:

أولا: إنها أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل، أو عظيم مصلح فقد وصلت إلينا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عن أصح الطرق العلمية وأقواها ثبوتا، مما لا يترك مجالا للشك في وقائعها البارزة وأحداثها الكبرى، ومما ييسر لنا معرفة ما أضيف إليها في العصور المتأخرة من أحداث أو معجزات أو وقائع أوحي بها العقل الجاهل الراغب في زيادة إخفاء الصفة المدهشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما أراد الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون عليه من جلال المقام وقدسية الرسالة، وعظمة السيرة.[3]

---

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 23.
[2] نفسه، ص: 24.
[3] مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، المكتب الإسلامي، 1405هـ - 1985م، ط8، ص: 15.

إن الميزة من صحة السيرة، صحة لا يتطرق إليها شك لا توجد في سيرة رسول من رسل الله السابقين، فموسى عليه السلام قد اختلطت عندنا وقائع سيرته الصحيحة بما أدخل عليها اليهود من زيف وتحريف، ولا نستطيع أن نركن إلى التوراة الحاضرة لتستخرج منها سيرة صادقة لموسى عليه السلام، فقد أخذ كثير من النقاد الغربيين يشكون في بعض أسفارها، وبعضهم يجزم بأن بعض أسفارها لم يكتب في حياة موسى عليه السلام ولا بعده بزمن قريب وإنما كتبت بعد زمن بعيد من غير أن يعرف كاتبها، وهذا وحده كاف للتشكيك في صحة سيرة موسى عليه السلام، ولذلك ليس أمام المسلم أن يؤمن بشيء من صحة سيرته إلا ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، ومثل ذلك يقال في سيرة عيسى عليه السلام، فهذه الأناجيل المعترف بها رسميا لدى الكنائس المسيحية إنما أقرت في عهد متأخر بمئات السنين، وقد اختيرت بدون مسوغ علمي من بين مئات الأناجيل التي كانت منتشرة في أيدي المسيحيين يومئذ، ثم إن نسبة هذه الأناجيل لكاتبيها لم يثبت عن طريق علمي تطمئن النفس إليه، فهي لم ترو بسند متصل إلى كاتبيها، على أن الخلاف قد وقع أيضا بين النقاد الغربيين في أسماء بعض هؤلاء الكاتبين من يكونون؟ وفي أي عصر كانوا؟[1] وهكذا نجد أن أصح سيرة وأقواها ثبوتا متواترا هي سيرة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: إن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها، منذ زواج أبيه عبد الله بأمه آمنة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم، فنحن نعرف الشيء الكثير عن ولادته، وطفولته، وشبابه، ومكسبه قبل النبوة، ورحلاته خارج مكة، إلى أن بعثه الله رسولا كريما، ثم نعرف بشكل أدق وأوضح وأكمل كل أحواله بعد ذلك سنة فسنة.[2]

مما يجعل سيرته عليه الصلاة والسلام واضحة وضوح الشمس، كما قال بعض النقاد الغربيين: "إن محمدا عليه الصلاة والسلام هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس".

وهذا ما لم يتسير مثله ولا قريب منه لرسول من رسل الله السابقين، فموسى عليه السلام لا نعرف شيئا قط عن طفولته وشبابه وطرق معيشته قبل النبوة، ونعرف الشيء القليل عن حياته بعد النبوة، مما لا يعطينا صورة مكتملة لشخصيته، ومثال ذلك يقال في سيدنا عيسى عليه السلام فنحن لا نعرف شيئا عن طفولته إلا ما الأناجيل الحاضرة، ثم نحن لا نعرف

[1] مصطفى السباعي، المرجع السابق، ص: 16.
[2] نفسه، ص: 17.

من أحواله بعد النبوة إلا ما يتصل بدعوته، وقليلا من أسلوب معيشته، ما عدا ذلك أمر يغطيه الضباب الكثير.[1]

فأين هذا مما تذكره مصادر السيرة الصحيحة من أدق التفاصيل في حياة رسولنا الشخصية كأكله، وقيامه، وقعوده، ولباسه، وشكله، وهيئته، ومنطقه، ومعاملته لأسرته وتعبده، وصلاته، ومعاشرته لأصحابه.[2]

ثالثا: إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحكى سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة فلم تخرجه عن إنسانيته، بل ظل وسيظل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المثل النموذجي الإنساني الكامل لكل من أراد أن يعيش سعيدا كريما في نفسه وأسرته وبيئته [3]، ومن هنا يقول الله تعالى في كتابه الكريم: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ".[4]

رابعا: إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لكل النواحي الإنسانية في الإنسان فهي تحكي لنا سيرة محمد الشاب الأمين المستقيم قبل أن يكرمه الله تعالى بالرسالة، كما تحكي لنا سيرة رسول الله الداعية إلى الله الملتمس أجدى الوسائل لقبول دعوته، الباذل منتهى طاقته وجهده في إبلاغ رسالته، كما تحكي لنا سيرته كرئيس دولة يضع لدولته أقوم النظم وأصحها، ويحميها بيقظته وإخلاصه وصدقه بما يكفل لها النجاح، كما تحكي لنا سيرة الرسول الزوج الأب في حق العاطفة، وحسن المعاملة، والتمييز الواضح بين الحقوق والواجبات لكل من الزوج والزوجة والأولاد، كما تحكي لنا سيرة الرسول المربي المرشد الذي يشرف على تربية أصحابه تربية مثالية ينقل فيها من روحه إلى أرواحهم ومن نفسه إلى نفوسهم، مما يجعلهم يحاولون الاقتداء به في دقيق الأمور وكبيرها، كما تحكي لنا سيرة الرسول الصديق الذي يقوم بواجباته الصحية، زيفي بالتزاماتها وآدابها مما يجعل أصحابه يحبونه كحبهم لأنفسهم وأكثر من حبهم لأهليهم وأقربائهم، وسيرته تحكي لنا سيرة المحارب الشجاع، والقائد المنتصر، والسياسي الناجح، والجار الأمين والمعاهد الصادق.[5]

---

[1] مصطفى السباعي، المرجع السابق، ص، ص: 17 – 18.
[2] نفسه، ص: 18.
[3] نفسه، ص: 18.
[4] الأحزاب، الآية 21.
[5] مصطفى السباعي، المرجع السابق، ص، ص: 18 – 19.

وقصارى القول: إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة.[1]

وعلى هذا فقد كتب في السيرة النبوية منذ الصدر الأول في أيامنا هذه ما يعز على الحصر من المؤلفات والكتب بين صغير وكبير، ومنظوم ومنثور، ومتون وشروح، وسيبقى الكاتبون يدورون حول سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ويكتبونها في كل عصر بلغته، وفي كل مصر بمفهومه إلى أن تقوم الساعة [2]، وهذا دليل على عناية الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وسلم محيا ومماتا تحقيقا لقوله تعالى: "وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ".[3]

والجدير بالذكر هنا أن الكتابة في السيرة النبوية الشريفة لا تقتصر على المسلمين وحدهم بل شارك وساهم فيها غير المسلمين قديما وحديثا، وفي شتى بقاع العالم، يقول العلامة السيد سليمان الندوي: "قرأت في (مجلة المقتبس) التي كانت تصدر في دمشق قبل نحو أربعين سنة إحصاء لما صنف في السيرة النبوية بمختلف اللغات الأوروبية تبلغ نحو ثلاثمائة كتاب وألف كتاب، ولو أضفنا إلى هذا العدد ما صدر من المطابع الأوروبية في السيرة النبوية خلال الأربعين سنة بعد ذلك الإحصاء لزاد العدد كثيرا".[4]

ثم إن السيرة النبوية هي الترجمة العملية، والتطبيق الصحيح للكتاب والسنة المطهرة، في واقع الحياة على جميع محاورها، ولهذا تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن"، وقد قال سفيان بن عينيه رحمه الله: "النبي صلى الله عليه وسلم هو الميزان الأكبر فتعرض الأشياء كلها على خلقه وسيرته وهديه، فما وافقها فهو المعمول به المعول عليه، وما خالفها فهو من قبيل الباطل والضلال".[5]

ولعل خير مثال على الكتب المصنفة في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للإمام القاضي عياض، درة كتب الشمائل وعزتها، وواسطة عقد كتب السيرة النبوية، جليل القدر، عظيم الشأن، لم ينسج على منواله، حاز فيه مؤلفه قصب السبق وطار صيته شرقا وغربا، فهو من أبرز كتب الشمائل وأوسعها شهرة تلقتها الأمة قرنا بعد قرن بالقبول وحاز اهتمام العلماء في كل العصور، فمن شارح له ومختصر، ومخرج لأحاديثه وما أحوج الأمة اليوم لمثل هذا الكتاب لتقف

[1] مصطفى السباعي، المرجع السابق، ص: 19.
[2] فاروق حمادة، المرجع السابق، ص: 31.
[3] الشرح، الآية 04.
[4] فاروق حمادة، المرجع السابق، ص: 31.
[5] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص: 05.

على علو شأن نبيها وعظيم مكانته صلى الله عليه وسلم ورفعة قدره،في زمن تطاول على مقامه صلى الله عليه وسلم الجاهلون شرقا وغربا، وكان صلى الله عليه وسلم وسيظل هو النور الذي يهدي السائرين إلى صراط الله المستقيم.[1]

عرف هذا الكتاب في كل بقاع العالم الإسلامي، فقد كتب الله له القبول فكتبه تلاميذ القاضي عياض عنه، وطارت نسخه شرقا وغربا، وقد يدهش الإنسان عندما يعلم أن نسخ الشفا المخطوطة والمحفوظة بالمكتبات العامة فقط تعد بالمئات، فقد أحصيت له في الخزانة الملكية بالرباط، أكثر من مائة مخطوطة، ومثلها بالخزانة العامة بالرباط، ونسخا كثيرة بخزانة القرويين بفاس، والخزانة العامة بتطوان وفي تونس في المكتبة القومية توجد نسخ عديدة للشفا، وفي مكتبة الأزهر وغير ذلك من المكتبات.[2]

ولا أحسب مكتبة في العالم الإسلامي تخلو من نسخ الشفا المخطوطة، وفي الطبع نجد الشفا في أوائل الكتب الإسلامية التي طبعت ورأت النور في مصر، والمغرب، وتركيا، والهند وقد طُبع الكثير، لقد كتب الله للشفا القبول، فكما عنى به العلماء بالدرس والشرح والإقراء كذلك تلقته الأمة بالتقدير والإجلال.[3]

ففي كثير من الأقطار الإسلامية يقرأ الشفا عند الكروب والملمات والشدائد والأمراض المستعصية ويوضع في المنازل لحفظها وإحلال الأمن بها، وقد طبع بالمغرب في ثلاثين جزءا لتسهيل قراءته في المناسبات، وبفضل الله أحب الناس كتاب الشفا وتعلقوا به [4]، قال الله تعالى: "ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ".[5]

لا نبعد إذ قلنا أن القاضي عياض رحمه الله، يكاد أن يكون من أشهر الأعلام في تاريخنا العلمي على الإطلاق فقد طارت شهرته في عصره وبعد عصره بالمغرب والمشرق على السواء، وكتب الذيوع بحق مؤلفاته ورزق بعضها كالشفا من حسن القبول والتلقي لدى الخواص والعوام ما لم يرزقه فيما نحسب مؤلف مغربي آخر، آية ذلك هذه النسخ الخطية من الشفا التي تزخر بها الخزائن في كل مكان، وإن من الأعلام من تسمو بسببهم أوطانهم وتذكر بفضلهم بلدانهم.[6]

---

[1] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص، ص: 5 – 6.
[2] البشير علي حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 301.
[3] نفسه، ص، ص: 301 – 327.
[4] نفسه، ص: 327.
[5] الحديد، الآية 20.
[6] محمد بن شريفة، كتاب **التعريف بالقاضي عياض لولده، القاضي أبي عبد الله،** مجلة المناهل، العدد التاسع عشر، صفر 1401هـ، ص: 335.

اشتهر كتاب الشفا بالتعريف في حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم من حياته مؤلفه، يقول الدكتور الحسين في كتابه "منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض" الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم هو أشهر كتب القاضي عياض (رحمه الله) وأجلها وأعظمها قدرا وأكثرها فائدة، وأوسعها انتشارا، وقد قرئ على مؤلفه عشرات المرات حيث أنه أتمه في وقت مبكر، وكان يقرأ عليه في حدود سنة 531هـ، وهذا ما أكسبه شهرة وانتشارا لذا وجدت منه نسخ كثيرة في مختلف الأماكن.[1]

وهذا الكتاب هو من أشهر كتب القاضي عياض على الإطلاق، حتى قيل: لولا الشفا ما ذكر عياض، والحقيقة أنه من أشهر الكتب الإسلامية.[2]

وقد رواه عنه ما لا يحصى كثرة الأعلام، وخصوصا في الغرب الإسلامي حيث انتشرت رواياتهم بالأندلس وشمال إفريقية، وهناك أفراد من المغرب نقلوا سند الشفا إلى المشرق العربي.[3]

من بينهم الرحال الأندلسي ابن جبير.[4]

يعد القاضي أبو الفضل من أهل الصلاح والولاية، فضريحه مزار في مراكش، وكتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم يترك به ويتلى في مجالس الذكر وبين يدي المرضى، وهو كتاب جليل ذاعت شهرته في جميع أنحاء العالم الإسلامي لا تكاد تخلو منه مكتبة حتى أصبح معروف عند العامة والخاصة، تدارسه العلماء وتناقله الناس واستنسخوه.

ويمكن أن نقرأ هذه الأخبار التي يرويها ابنه في (التعريف) ويرددها المقري في (أزهار الرياض) عن رؤى يتجلى فيها أبو الفضل لبعضهم ويجري فيها كلام عن كتاب الشفا.[5]

---

[1] الحسين محمد بن شواط، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم، ص، ص: 155 – 156.

[2] البشير حمد الترابي، المرجع السابق، ص: 155.

[3] محمد المنوني، **رواية مشرقية لكتاب الشفا من طريقا الرحالة الأندلسي أبي الحسين بن جبيرة** ، مجلة المناهل، العدد التاسع عشر، صفر 1401هـ، ص: 392.

[4] أبو الحسين محمد بن أحمد جبير الأندلسي الرحال، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة ببلنسية، وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبي عبد الله الأصيلي وأبي الحسن بن أبي العيش وأخذ عنه القراءات، وعنى بالأدب فبلغ الغاية فيه؛ ينظر: أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ - 1988م، مج2، ص، ص: 381 – 382.

[5] محمد العربي الخطابي، **ذكرى أبي الفضل عياض اليحصبي** ، مجلة المناهل، العدد التاسع عشر، صفر 1401هـ، ص، ص: 176 – 177.

إذ يذكر "أن الشيخ الرحال ابن جابر الوادي آشي [1] قال: ولما قرأته على شيخي الإمام العالم، قاضي الجماعة الخطيب أبي العباس أحمد بن الغماز الخزجي [2] بمنزله من تونس، في مجالس آخرها في رمضان عام أحد وتسعين وستمائة، وكان يحضره جماعة من العلماء الجلة، منهم شيخنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائي القرطبي، وموضعه على يسار الشيخ، فلما ختم المجلس ودعا الشيخ على عادته، أدار وجهه لشيخنا أبي محمد بن هارون وأنشده ارتجالا:

إن الشفاء شفاء النفوس غدت هدى الأنام وخص بالآيات [3]

قال ابن جابر رحمه الله: "وقيدت من خط الشيخ الصالح الزاهد أبي الحسين عبيد الله بن أحمد بن عبد المجيد الأزدي على كتاب الشفا، وكان نسخه بيده وسط شعبان عام ثمانية وخمسين وستمائة، ما مثله، وقد قرأت والحمد لله عينة نسخه وكماله، وثلج فؤاده لتعلق رجائه أن يجعله الله تعالى في صحيفة أعماله، فنسأل الله تعالى أن يجازي مؤلفه خيرا ويعظم له بما ألفه وانتخبه أجرا، فلقد جرى رضي الله عنه في ميدان أشرف العلوم جري السابق، ونظم في جيد الزمان سلك المعارف ودرر الحقائق، وشفى بكتاب الشفا قلب كل مؤمن صادق، كما كبت به قلب كل عدو منافق، فإذا طالعه المؤمن استنارت في باطنه حقائق أنواره، وإذا جال في روض معارفه تنفست له نفحات نسيمه الأريج واستنارت في باطنه أزهاره.[4]

قال ابن الخطيب رحمه الله تعالى ومثل هذا كثير يعني ثناء الأعلام على القاضي رحمه الله، وحكى غير واحد منهم: ابن جابر الواد آشي أن القاضي أبا الفضل، لما ألف كتاب الشفا أوقف عليه شيوخه الإمام الحافظ أبا بكر العربي رحمهما الله تعالى، فقال: "بارك الله فيك يا أبا الفضل واستحسنه جدا".[5]

---

[1] هو محمد بن أحمد بن علي الهواري، من أهل المرية، كان كفيف البصر، وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، وقد رحل إلى المشرق في طلب الحديث، والوادي آشي نسبة إلى وادي آشي ويقال فيه: "وادي الآشات" وهي مدينة جليلة من أعمال غرناطة؛ ينظر: المقري، أزهار الرياض، ج1، ص: 23.

[2] أبو العباس أحمد بن محمد بن حسن الغماز الأنصاري من أهل بلنسية، نزل ببجاية وكان قاضيا بها (توفي 693هـ)؛ ينظر: المقري، أزهار الرياض، ج4، ص: 240.

[3] نفسه، ص، ص: 272 – 273.

[4] نفسه، ص، ص: 274 – 275.

[5] نفسه، ص: 81.

فمناقب الإمام أبي الفضل عياض، رحمه الله وكتابه الشفا كثيرة ودالة على ما له من الرتبة الدينية، فمن ذلك ما حدث به المشيخة عن بعض الصالحين، قال: "رأيت القاضي أبا الفضل بعد موته في المنام وهو في قصر عظيم جالس على سرير قوامه من ذهب قال: فكان يسألني عن مسألة فأقول له يا سيدي ذكر فيها في كتبك الشفا كيف وكيف قال، فكان يقول لي أعندك ذلك الكتاب؟ فأقول نعم، فيقول لي شد يدك عليه فبه نفعني الله وأعطاني ما تراه".[1]

ويذكر المقري كذلك أن أحد الملوك رأى في منامه بعد موته في القيامة والنار تسوق الناس إلى المحشر وهو في حالة حسنة وثياب حسان، يقول: لا أقدر أن أصف حسن ثيابه فكلما همت النار أن تلحقه أو تقرب إليه، مد إليها يده، فترجع النار عنه مسيرة خمسمائة عام، فقلت له ما هذا؟ فقال: كنت في الدنيا قد كتبت الشفا لعياض، وحسبت عليه وكسوت عليه عشرين كسوة في كل سنة كسوة للقارئ،فلما وقفت بين يدي ربي أمر بي إلى النار، فأنا كلما همت النار بي مددت يدي فترجع النار كما ترى عني، وكساني بكل كسوة عشرين ألف حلة من حلل النار.[2]

وذكر أن بعض الملوك كان مسرفا على نفسه في اللهو وما لا يرضي الله، فرفعت إليه رقعة فيها مكتوب "حتى متى وإلى متى هذا اللهو، الموت يطلبك"، فأعرض عن ذلك مدة، ثم رجع وندم وشاور بعض خواصه في وجه الخلاص، فدل على بعض صلحاء وقته، فلما شكى إليه قال له، ما أرى لك أفضل من خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال له: وبأي وسيلة أتقرب إليه، وأنا بعيد من طريقته؟ فقال له بكتاب الشفا للقاضي عياض ومن هنا يقع الصلح بينك وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك اشتغل بنسخه والعطاء عليه وكان يقرأه دائما، ورتب في مجلسه تاركا له، فظهرت عليه آثار القبول والمحبة شيئا فشيئا في باطنه، واستنار من فيض حبيبه وشفيعه وكبر شأن ملكه وكان يقول ذلك كله من بركة الشفا.[3]

[1] أحمد المقري، أزهار الرياض، ج4، ص، ص: 83 – 84.
[2] نفسه، ص: 85.
[3] نفسه، ص، ص: 85 – 86.

وقد تكرر السماع من علماء فاس ولاسيما من السيد القدوة أبي عبد الله بن غازي [1] رحمهم الله، أنهم قالوا رأى بعض صلحاء فاس نفع الله بهم في المنام السلطان أبا عنان [2] وهو بحالة حسنة وثياب حسان فقال له: ما فعل الله بك؟ غفر لي وأدخلني الجنة، فقال له: وبم ذلك؟ قال: بتحبيسي على قراءة الشفا للقاضي عياض بمساجد فاس غفر لي وضمن عني الحقوق وهنا رجاء عظيم، وذلك قليل في حق المصطفى صلى الله عليه وسلم.[3]

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي الفقيه المؤرخ الرواية، توفي سنة 919هـ؛ ينظر: المقري، أزهار الرياض، ج4، ص: 222.

[2] ولد هذا السلطان بالمدينة البيضاء من أم رومية، اسمها الضحي، وأبو عنان هذه كنية أما لقبه فكان المتوكل على الله، وقد أفاض المؤرخون كثيرا في الحديث عن صفاته إثر أدائه لصلاة عيد الأضحى سنة (709هـ - 1308م)؛ ينظر: محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلسي في العصر المريني (869/610هـ - 1465/1213م)، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1408هـ - 1987م، ط2، ص، ص: 125 – 130.

[3] المقري، أزهار الرياض، ج4، ص: 222.

خـــــاتمة

ونأتي إلى آخر هذه الدراسة، التي أرجو من الله تعالى أنها حققت ولو جزءا بسيطا مما تصبوا إليه، والمتمثلة أساسا في المكانة العلمية لكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للقاضي عياض رحمه الله تعالى وجعل مثواه الجنة في حلقات الدرس المغربية.

وفي هذه الخاتمة سنستعرض أهم الملاحظات التي وقفنا عندها وتوصلنا إليها كنتائج لهذا البحث، وتتمثل فيما يلي:

- عاصر القاضي حكم دولتين (دولة المرابطين، ودولة الموحدين)، وقد كان للأولى مواليا وهي دولة المرابطين التي وحدت بلاد المغرب، مما ساعده على طلب العلم في بادئ الأمر بسبتة التي كانت تزخر بالعلماء في مختلف المجالات، وتمثل مركزا علميا مميزا يلتقي فيه حملة العلم، وكان ذلك في ظل دولة تحترم العلم والعلماء، فأقبل على حفظ كتاب الله تعالى حتى أتمه في سن مبكر، وأكثر من مجالسة العلماء حتى برع في مختلف فنون العلم، أما الفترة الأخيرة من حياته فكانت فترة بلاء ومحنة.

- أخذ القاضي عياض على عدد كبير من الشيوخ ذكر منهم مائة في فهرست شيوخه التي سماها "الغنية"، ذاكرا تخصص كل واحد منهم، وجملة مما سمعه أو قرأه عليهم وإجازاتهم ومكاتباتهم، ويمكن تقسيم هؤلاء الشيوخ تقسيما موضوعيا يستفاد منه في معرفة المنابع العلمية المختلفة للقاضي عياض، وذلك بحسب مواطن هؤلاء الشيوخ وطريقة تلقي القاضي عياض عنهم نبدأ بذكر شيوخه في سبتة من أهلها والوافد عليها ثم شيوخه الأندلسيين، ثم الذين أخذ عنهم إلا بطريق الإجازة.

- وقد كثر تلاميذ القاضي عياض من الأندلسيين والمغاربة بحيث لا نكاد نجد أحد من أهل الطبقة التي تلت طبقة عياض في تلك الديار إلا وقد تتلمذ على يده.

- كانت حياة القاضي عياض موزعة بين القضاء والتأليف والتدريس، على الرغم من أن أعباء القضاء كانت تأخذ وقتا كبيرا في حياته، إلا أنه ترك عددا كبيرا من المؤلفات والمصنفات التي كانت في عدة مجالات: مجال الحديث، ومجال اللغة، ومجال الأدب، وغير ذلك من الأغراض والموضوعات.

- هذا وقد أسهم القاضي عياض (رحمه الله تعالى) في إثراء المكتبة الإسلامية بمؤلفات قيمة، أضحى كثيرا منها من المصادر الأساسية لطلبة العلم، وتناقلها أهل العلم شرقا وغربا، وأثنوا عليها وعلى مصنفها.

- ومن هذه المصنفات كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي يعد من أهم مؤلفاته حتى قيل " لولا الشفا ما عرف عياض"، فقد كتب الله له القبول فكتبه تلاميذ عياض عنه، وطارت نسخه شرقا وغربا حيث تعد نسخ الشفا المخطوطة والمحفوظة بالمكتبات العامة بالمئات، فقد أحصيت له في الخزانة الملكية بالرباط أكثر من مائة مخطوطة، ومثلها بالخزانة العامة بالرباط، ونسخا كثيرة بخزانة القرويين بفاس، والخزانة العامة بتطوان، وفي تونس في المكتبة القومية توجد نسخ عديدة للشفا، وفي مكتبة الأزهر وغير ذلك من المكتبات.

- يقع الشفا في أغلب طبعاته في جزءين، وقد قسمه المؤلف إلى أربعة أقسام قبلها مقدمة، وقسم كل من القسمين إلى أربعة أبواب، والقسم الثالث قسمه إلى بابين وكذلك القسم الرابع، فجملة ما في الشفا من أبواب اثنا عشر بابا.

- هذا وقد حظي الشفا بعناية العلماء في المشرق والمغرب، فأقبلوا عليه يتدارسونه ويشرحونه ويختصرونه، وهذه العناية إنما ترجع إلى أنه يتناول موضوعا له المكان الأسمى في النفوس المؤمنة، وقد شرح الشفا كثيرا حتى زاحم الصحيحين في كثرة الشروح.

- إلى جانب ذلك فإن كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، يقرأ عنه الكروب والملمات والشدائد والأمراض المستعصية، ويوضع في المنازل لحفظها وإحلال الأمن بها، وقد طبع بالمغرب في ثلاثين جزءا لتسهيل قراءته في المناسبات.

ملاحق

الملحق رقم 01: من شعره:[1]

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى:

قِفْ بِالرِّكَابِ فَهَذَا الرَّبْعُ وَالدَّارُ لاَحَتْ عَلَيْنَا مِنَ الأَحْبَابِ أَنْوَارُ
بُشْرَاكِ، بُشْرَاكْ قَدْ لَاحَتْ قَبَابُهُمْ فَانْزِلْ، فَقَدْ نِلْتَ مَا تَهْوَى وَتَخْتَارُ
هَذَا المُحَصِّبُ هَذَا الخِيفُ خِيفٌ مِنِّي هَذِي مَنَازِلُهُمْ، هَذِه هِيَ الدَّارُ
هَذِي قِبَابُ قِبَا آثَارُ وَطَنِهِمْ وَذَا هُوَ الجِذْعُ، فَابْكِ، ذَا هُوَ الغَارُ
هَذَا النَّبِيُّ الحِجَازِيُّ الّذِي شَهِدَتْ لَهُ بِتَقْدِيمِهِ فِي الرُّسُلِ أَخْبَارُ
هَذَا الحَبِيبُ الّذِي أَسْرَى لِخَالِقِهِ لَيْلاً، وَقَدْ ضُرِبَتْ بِاللَّيْلِ أَسْتَارُ
هَذَا الرَّسُولُ الّذِي مِنْ أَهْلِهِ شَهِدَتْ لَنَا عَلَى غَيْرِنَا فَضْلٌ وَآثَارُ
هَذَا الشَّرِيفُ الّذِي سَادَتْ بِهِ مُضَرُ هَذَا الّذِي تُرْبُهُ كَالْمِسْكِ مِعْطَارُ
هَذَا الشَّفِيعُ الّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِلْمُذْنِبِينَ إِذَا مَا اسْوَدَّتِ النَّارُ
بَادِرْ وَسَلِّمْ عَلَى أَنْوَارِ رَوْضَتِهِ قَبْلَ المَمَاتِ فَلاَ تُشْغِلْكَ أَعْذَارُ
إِنْ لَمْ تُعَايِنْ تَرَاهُ العَيْنُ يَا أَسَفِي أَوْ لَمْ تَزُرْهُ فَإِنَّ الشَّوْقَ زَوَّارُ
يَا أَهْلَ طِيبَةَ لِيَ فِي رَبْعِكُمْ قَمَرٌ بَرٌّ عَطُوفٌ لِفِعْلِ الخَيْرِ أَمَّارُ
وَأَشْغَلَتْنِي ذُنُوبٌ عَنْكَ مُؤْلِمَةٌ أَخَافُ تَحْرِقُنِي مِنْ أَجْلِهَا النَّارُ
يَا خِيرَةَ الرُّسُلِ يَا أَعْلَى الوَرَى شَرَفًا قَدْ أَثْقَلَتْ ظَهْرِي آثَامٌ وَأَوْزَارُ
فَكُنْ شَفِيعِي لِمَا قَدَّمْتُ مِنْ زَلَلٍ وَمِنْ خَطَأِي، فَإِنَّ الرَّبَّ غَفَارُ
صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهُ العَرْشِ مَا سَجَعَتْ وُرْقٌ، وَمَا نَفَحَتْ فِي الرَوْضِ أَزْهَارُ
وَآلِهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ السُّعَدَاءِ مَا لَاحَ نَجْمٌ وَمَا هَطَلَ مِدْرَارُ

[1] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص: 546.

وقال أيضا:

إِلَيْكَ مَدَدْتُ الكَفَّ أَسْتَمْطِرُ الفَضْلَا وَأَسْتَكْشِفُ البَلْوَى وَأَسْتَعْطِفُ الطَّوْلَا
دَعَوْتُكَ مُضْطَرًّا فَعَجِّل إِجَابَتِي بِتَفْرِيجِ كَرْبٍ، طَالَمَا وَصَلَ الهَوْلاَ
وَأَنْتَ مَلاَذِي، يَا مُرَادِي وَسَيِّدِي فَسَامِحْ مُسِيئًا قَدْ جَنَى الجِدَّ وَالهَزْلاَ
نِدَاءٌ مَدَى الأَعْمَارِ، يَا فَالِقَ النَّوَى وَيَا سَامِعَ النَّجْوَى وَيَا مَنْ هُوَ الأَعْلَى
قِيَمٌ مِنَ الطَّاعَاتِ، عَفْوُك يُرْتَجَى قِهِ الفَقْرَ، وَالإِفْلاَسَ وَالفَقْدَ وَالذُلاَّ
إِلَهِ، لَكَ الشَّكْوَى بِقَوْمٍ تَسَرْبَلُواْ رِدَاءً مِنَ البَلْوَى أَذَاعُواْ بِهِ الوَيْلاَ
سَأَلْتُكَ بِالْمُخْتَارِ .....
بِجَاهِ رَسُولِ اللهِ فَارْحَمْ تَضَرُّعِي وَنَفِّسْ هُمُومِي كُلَّهَا: الفَرْعَ وَالأَصْلاَ
لَجَأْتُ إِلَى بَابِ الكَرِيمِ لِفَاقَتِي فَلَيْسَ لَنَا مُغْنٍ سِوَاهُ وَلاَ مَوْلَى
كَثِيبًا، غَرِيبًا، بِافْتِقَارٍ وَضَيْعَةٍ ذَلِيلاً حَقِيرًا، أَهْلَ الفَرْضِ وَالنَّفْلاَ .....
فَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنْ عُلَاكَ صَوَاعِقًا تَصِيرُ مَدَى الأَعْمَارِ أَخْبَارُهَا تُتْلَى
وَصَلِّ عَلَى قُطْبِ الوُجُودِ مُحَمَّدٍ صَلاَةً نِعْمَ الرُّسْلَ وَالصَّحْبَ وَالأَهْلاَ
وَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ وَارْضَ عَنْهُمْ وَجَازِهِمْ (عَنَّا) وَعَنِ الإِسْلاَمِ مَا هُمْ بِهِ أَوْلَى

وقال رحمه الله تعالى:

بُشْرَاكَ يَا قَلْبُ هَذَا سَيِّدُ الأُمَمِ وَهَذِهِ حَضْرَةُ المُخْتَارِ فِي الحَرَمِ
وَهَذِهِ الرَّوْضَةُ الغِرَّاءُ طَاهِرَةٌ وَهَذِهِ القُبَّةُ الخَضْرَاءُ كَالعَلَمِ
وَمَنْبَرُ المُصْطَفَى الهَادِي وَحُجْرَتُهُ وَصَحْبُهُ، وَالبَقِيعُ دَائِرٌ بِهِمْ
فَطِبْ رَغِبْ عَنْ هُمُومٍ كُنْتَ تَعْرِفُهَا وَسَلْ تَنَلْ كُلَّ مَا تَرْجُوهُ مِنْ كَرَمِ
يَا سَيِّدِي رَسُولَ اللهِ خُذْ بِيَدِي فَالعَبْدُ ضَيْفٌ، وَضَيْفُ اللهِ لَمْ يَضَمِ
يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ، يَا مَنْ ضَيْفُ سَاحَتِهِ يَبِيتُ فِي الأَمْنِ فِي خَيْرٍ وَفِي نِعَمِ
يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مِنْ حَافٍ وَمُنْتَعِلٍ يَا أَفْضَلَ النَّاسِ فِي ذَاتٍ وَفِي شِيَمِ
يَا أَشْرَفَ الأَنْبِيَاءِ، يَا مَنْ شَفَاعَتُهُ عَمَّتْ عَلَى الخَلْقِ فِي الوِجْدَانِ وَالعَدَمِ
أَنَا فَقِيرٌ إِلَى عَفْوٍ وَمَغْفِرَةٍ وَأَنْتَ أَهْلُ الرِضَّا يَا سَيِّدَ الأُمَمِ
وَقَدْ أَتَيْتُكَ أَرْجُو مِنْكَ مِكْرَمَةً وَأَنْتَ أَدْرَى بِمَا فِي القَلْبِ مِنْ أَلَمِ
وَالحَالُ يُغْنِي عَنِ الشَّكْوَى إِلَيْكَ وَقَدْ عَرَفْتُ حَالِي، وَإِنْ لَمْ أَحْكِهِ بِفَمِّ [1]

[1] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص، ص: 549 - 550

فَاشْفَعْ لِعَبْدِكَ وَاجْبِرْ قَلْبَهُ فَلَكَمْ أَوْدَى بِهِ الكَسْرُ مِمَّا نَالَ مِنْ جَرَمِ
يَا أَحْمَدٌ، يَا أَبَا بَكْرٍ، وَيَا عُمَرُ نَزِيلُكُمْ فِي أَمَانٍ غَيْرِ مُنْهَضِمِ [1]

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى:

يَا عَيْنُ هَذَا السَّيِّدُ الأَكْبَرُ وَهَذِهِ الرَّوْضَةُ وَالمَنْبَرُ
فَشَاهِدِي فِي حَرَمِ المُصْطَفَى مِنْ نُورِهِ السَّاطِعِ مَا يُبْهِرُ
يَا عَيْنُ، ذَا مَا كُنْتِ تَبْغِينَهُ فَمَا لِأَجْفَانِكِ لَا تُمْطِرُ
هَذَا مَقَامُ المُجْتَبَى أَحْمَدُ فَمِثْلُهُ الأَعْيُنُ لَا تَنْظُرُ
وَأَيُّ فَهْمٍ فِيهِ لَا يَنْجَلِي وَأَيُّ كَسْرٍ فِيهِ لَا يُجْبَرُ
وَدَّتْ نُجُومِ الأُفُقِ لَوْ غَدَتْ مَوْطُوءَةً فِيهِ لِمَنْ يَخْطُرُ
كُلُّ مَقَامٍ قَدْ سَمَا قَدْرُهُ فِي هَذِهِ الحَضْرَةِ مُسْتَصْغَرُ
تَجَمَّعَ الفَضْلُ بِهَا وَالنَّدَى وَالجُودُ وَالسُّؤْدَدُ وَالمَتْجَرُ
إِلَى ثُرَاهَا الزَّعْفَرَانُ انْتَهَى وَمِنْ شَذَاهَا المِسْكُ وَالعَنْبَرُ
قَدْ حَسَدَتْهَا سِدْرَةُ المُنْتَهَى لِمَا حَوَتْ، وَالفُلْكُ الأَنْوَرُ
وَالكَعْبَةُ، الغِرَّاءُ وَالمُنْحَنَى وَالحَجَرُ، وَالأَسْتَارُ وَالمِشْعَرُ
فَاسْتَبْشِرِي يَا مُقْلَتِي بِاللِّقَا فَمَنْ رَأَى الأَحْبَابَ يَسْتَبْشِرُ
قَدْ ذَهَبَ الهَمُّ وَزَالَ العَنَا وَكُلَّ مَا يُخْشَى وَمَا يُحْذَرُ
وَخَصَّ بِالنُّعْمَى، وَحَازَ الرِّضَى وَأَرْغَمَتْ حُسَادَهُ (.....)
بِاسْمِكَ يَا رَبُّ قَرَنْتَ اسْمَهُ فَإِنَّهُ يُذْكَرُ إِذْ تُذْكَرُ
صِفَاتُهُ العُلْيَا، كُلُّ الوَرَى عَنْ حَصْرِهَا، وَالقَطْرُ لَا يُحْصَرُ
مَنْ خَصَّهُ اللهُ تَعَالَى اسْمَهُ بِقَوْلِهِ: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ)
بَدْرُ دُجَى، أَصْحَابُهُ أَنْجُمُ بَحْرِ نَدَى، أَنْمُلُهُ أَبْحَرُ [2]

[1] أحمد جمال العمري، المرجع السابق، ص، ص: 249 – 250.
[2] نفسه، ص: 548.

الملحق رقم 02: أبيات في مدح كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم

قال قائلا تعظيما لمحله الكريم، وتشريفا لحميد آثاره:

كتاب الشفا شفاء القلوب قد ائتلفت شمس برهانه
إذا طالع المرء مضمونه رسا في الهدى أصل إيمانه
وجل بروض التقى ناشقا روائح أزهار أفنانه
ونال علوما ترقيه في ثريا السماء وكيوانه
فلله درابي الفضل إذ سرى في الورى نيل إحسانه
فعزز قد بني الهدى وخير الأنام بتبيانه
وجازاه ربي خير الجزا وجاد عليه بغفرانه
ومنا الصلاة على المجتبى وأصحابه ثم أعوانه
مدى الدهر لا ينقضي دائبا ولا ينثني طول أزمانه

وقال ابن جابر: وكنت قلت في زمن نسقي له أبياتا أثبتها هنا، نفع الله بالقصد فيها وهي:

شفاء عياض للنفوس الأبية دواء سناه وهي أسمى وسيلة
به أشرق الإصباح واتضح الهدى برغم أنوف للطغاة وذلة
له الله من حبر إمام وعالم غدا فيه يهدي الخلق لكن لسنة
ولما رأى الأهواء زاد امتدادها وجاء بنوها بالضلال وشبهة
نضا صارم الإسلام في نحر كيدهم وقال لهم: بالله حبسي وعدتي
أبان الذي يعتاص صدقا بحجة أتت تتجلى كالشمس وسط الظهيرة
له في بلاد الله نور مشعشع ومطلع ذلك النور أرجاء سبتة
ولا عجب للغرب قد خص ربنا به الفضل بل في الشرق مطلع فتنه
جزى الله ربي رحه الناعم الذي توارى غريبا خير أعضاء ميتة
وآتاه مما قد أعن لمن قضى شهيدا من الخيرات في صدق جنه [1]

[1] أحمد المقري، أزهار الرياض، ج4، ص، ص: 275 – 277.

وقيل أيضا:

شفاء عياض للقلوب دواؤها من الجهل فاجهد أن تكون به مغرى
لقد حاز بالأجر الجزيل حقيقة لدى حلبة السباق في موقف الأخرى
فطالع معانيه تفز بمعارف ترقى معانيها وتكسبه أجرا
وتدنيه من نهج الحقيقة وأصلا إلى العالم الأعلى وتوجده ذكرا
فيرقى عن الأغبار في كل وجهة ويظفر بالحسنى ويا حبذا فخرا
وينعم بالأحباب في حضرة البقا ويشهد الجمع جهرا إذا أسرى [1]

وقيل أيضا:

قرأت كتاب الشفا وما هو إلا الشفا
فبورك فيه لما قد حوى من حلى المصطفى
كتاب علا قدره على كل ما صنفا
عياض بتصنيفه على كلا صنفه شرفا
كفاني عكوفي على فوائد فيه كفى

وقيل أيضا:

أبو الفضل حاز الفضل والبراذ أتى بعقد من الياقوت قد حف بالدر
وحلى بها جيد الزمان فأصبحت على نحره تزداد حسنا مع الدهر
تمد ضياء الشمس من حسن نورها ويقوى بها نور الكواكب والبدر
كما قد صحت من قبل عند ظهورها بأنوارها ليل الضلالة والكفر
شفى بالشفا ما في النفوس فلم يدع مقالا لذي قول بسر ولا جهر
فقسم أقساما ربوبها معا وفصلها مقبولة العلم والذكر
وقدم آيات الكتاب التي بها سما قدره فوق .....
وثنى بأخبار صحاح شهيرة كما اتبعت شمس السموات بالبدر
وكم غاض في بحر المعارف ينتقى من الدر ما قد غاب في غامض البحر
فجود منها كل قاص وشارد وما ضله الحفاظ في سالف الدهر
وكل غريب النقل صحت طريقه وكل طريق المتن عارض النكر

[1] المقري، أزهار الرياض، ج4، ص، ص: 275 – 278.

وقال بعضهم:

أيا شاكيا دهره إن جفا عليك بنسخ كتاب الشفا

ففيه الجلاء لكل الهموم وفيه لداء الذنوب الشفا

وتبلغ لا شك ما ترتجى إذا أنت رسمه أحرفا

فذلك حتم جرى عادة لتضمينه شرف المصطفى

عليه صلاة من الله ما بدا النجم في أفقه أو خفا

وقيل أيضا:

رجوت الشفا لما شفني وأثقل ظهري بنسخ الشفاء

ولم ألتمس في سواه شفائي ولم أرج إلا لديه شفائي

ففيه الشفاء لمن لم يجد لداء ألم به من شفاء [1]

[1] المقري ، المصدر السابق، ج4، ص، ص: 279 – 283.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

📖 القرآن الكريم، رواية ورش عن الإمام نافع.

📖 ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، المعجم في أصحاب القاضي الإمام ابن علي الصدفي، مكتبة الثقافة الدينية، 1420هـ - 2000م، ط1.

📖 ابن الأثير محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان، 2012، ج8.

📖 ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد بن عبد الله عنان، مك بتة الخانجي، القاهرة، 1397هـ - 1988م، ط1، ج4.

📖 ابن القطان المراكشي ابن محمد حسن بن علي بن عبد الملك الكتاني، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.

📖 ابن باشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1414هـ - 1994م، ج2، ط2.

📖 ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، مجمع فتاوي شيخ الإسلام بن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425هـ - 2004م، ج4.

📖 ابن خاقان ابن نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح حسين يوسف خربوش، مكتبة المنارة، الأردن، 1409هـ - 1989م، ط1.

📖 ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج3، (د.ت).

📖 ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله، الأنباه على قبائل الرواة، تح: إبراهيم الأيباري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ - 1975م.

📖 ابن عبد السلام عز الدين عبد العزيز، القواعد الكبرى المسوم بقواعد الأحكام في إصلاح الأنام، تح: نزيه كمال وآخرون، دار القلم، دمشق، 1421هـ - 2000م، ج1.

📖 ابن عطية أبي محمد عبد الحق، فهرس ابن عطية، تح: محمد أبو الأجفان، محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ط2.

📖 ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1412هـ - 1991م، ج12.

📖 ابن مرزوق محمد التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تح: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

📖 الأنصاري محمد بن القاسم السبتي، اختصار الأخبار كما كان بثغر سبتة من سن الآثار، تح، عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1403هـ - 1983م، ط2.

📖 التادلي أبي يعقوب بن يحيى، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد توفيق، الرباط، 1404هـ - 1984م.

📖 الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح، إحسان عباس، مكتبة لبنان، (د.ت).

📖 الذهبي شمس الدين بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تح : شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1418هـ - 1996م، ط11، ج19، 20.

📖 الزركلي خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمتشرقين، دار العلم للملايين، لبنان، 2002، ط15، ج5.

📖 سبط بن الجوزي شمس الدين بن المظفر يوسف بن قز أوغلي بن عبد الله، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: محمد بركات وآخرون، دار الرسالة العالمية، دمشق، 2013م – 1434هـ، ج1.

📖 السلاوي أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري، محمد الناصر، دار الكتاب، 1954، ج2.

📖 الشتريني ابن الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 1417هـ - 1997م.

📖 الضبي أحمد بن يحي بن عميرة، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1410هـ - 1989م، ج2.

📖 عياض بن محمد، التعريف بالقاضي عياض، تح: محمد بن شريفة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1982م.

📖 الفاسي علي بن عبد الله بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

📖 القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تح، ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1402هـ - 1982م، ط1.

📖 ـــــــــــــــــــــــ ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح، محمد بن تاريت الطنجي، 1403هـ - 1983م، ط3، ج1.

📖 ـــــــــــــــــــــــ ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تح: عبده علي كوشك، وحدة البحوث والدراسات، الإمارات العربية المتحدة، 1434هـ - 2013م.

📖 مالك بن أنس، موطأ مالك، تح: فؤاد عبد الباقي، الناشر مصطفى الباجي الحلبي، 1406هـ - 1985م.

📖 المراكشي ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، 1983، ط3، ج4.

📖 المراكشي بن محمد عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المكتبة العصرية، بيروت، 2006م – 1426هـ، ط1.

📖 مرتضى الزبيدي السيد محمد بن محمد الحسيني، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، مؤسسة التاريخ العربي، لبنان، 1414هـ - 1994م، ج1.

📖 المقري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1302هـ - 1939م، ج1، 3، 4.

📖 ـــــــــــــــــــــــ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ - 1988م، مج2.

📖 النباهي أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن، تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تح: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1403هـ - 1983م، ط5.

📖 الورغمي التونسي محمد بن عرفة، المختصر الفقهي، تح: حافظ عبد الرحمان محمد خير، مسجد ومركز الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، 1435هـ - 2014م، ط1

📖 ياقوت الحموي شهاب الدين بن عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ - 1977م، ج1.

المراجع:

📖 أبو شهبة محمد بن محمد، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، دار القلم، دمشق، 1412هـ - 1992م، ط2، ج1.

📖 بوتشيشت إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، (د.ت).

📖 بوزيد بكر بن عبد الله، المداخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، 1428هـ، ط1.

📖 الترابي البشير علي حمد، القاضي عياض وجهوده في علم الحديث رواية ودراية، دار ابن الحزم للطباعة والنشر، لبنان، 1418هـ - 1997م، ط1.

📖 حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، لبنان، (د.ت)، مج2.

📖 الحريري محمد عيسى، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلسي في العصر المريني (869/610هـ - 1465/1213م)، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1408هـ - 1987م، ط2.

📖 حمادة فاروق، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، دار القلم، دمشق، (د.ت)، ط3.

📖 خليفة حامد محمد، انتصارات يوسف (400-500هـ / 1009-1106م) بطل حركة الزلاقة وقائد المرابطين موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين، مكتبة الصحابة، الإمارات، ط1، 1425هـ - 2004م.

📖 السامرائي فراس سليم، تاريخ المغرب العربي، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، 2012، ط1.

📖 السباعي مصطفى، السيرة النبوية دروس وعبر، المكتب الإسلامي، 1405هـ - 1985م، ط8.

📖 السلماني عبد الله طه، الدويلات الإسلامية في المغرب، دار الفكر، عمان، 2014-2015م، ط1.

📖 شواط الحسين بن محمد، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، دار القلم، دمشق، 1419هـ - 1999م، ط1.

📖 ــــــــــــــــ ، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، 1414هـ - 1993م، ط1.

📖 علام عبد الله علي ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، سحب للطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.

📖 العمري أحمد جمال، السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض، دار المعارف، 1988.

📖 عنان محمد عبد الله، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1390هـ - 1970م، ط 2.

📖 الفاسي محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب العلمية، لبنان، 1416هـ - 1995م، ط1، ج2.

📖 القاري علي الهروي الحنفي، شرح الشفا للقاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ - 2001م، ج1.

📖 الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1402هـ - 1982م، ط2.

📖 الكتاني محمد بن جعفر، الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ت)،

📖 مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ - 2003م، ج1، ط1.

📖 المنوني محمد، حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، المغرب، 1989، ط1.

📖 مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2005.

📖 الندوي سليمان، الرسالة المحمدية، دار ابن كثير، دمشق، 1423هـ - 2002م، ط1.

📖 النووي أبو زكريا محي الدين بن مشرف، تهذيب الأسماء واللغات، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، (د.ت)، ج2.

الرسائل الجامعية:

📖 باشا حكيم، القاضي عياض وجهوده العقدية في مبحث الإلهيات والنبوات، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 1430 – 1431هـ/2009 – 2010م.

📖 ساعي إدريس ، النقد اللغوي والبلاغي عند القاضي عياض في كتابه بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، رسالة ماجستير في اللغة والأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، " 1434 – 1435هـ/2013 – 2014م".

📖 العمري صالح بن عثمان بن محمد، إجماعات القاضي عياض في الفقه الإسلامي جمعا وتوثيقا ودراسة، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1418هـ - 1998م.

المجلات:

📖 بن شريفة محمد، **كتاب التعريف بالقاضي عياض لولده، القاضي أبي عبد الله** ، مجلة المناهل، العدد التاسع عشر، صفر 1401هـ

📖 بن يشو جيلالي، **شعر التوسل عند القاضي عياض (دراسة لغوية)** ، مجلة حوليات التراث، العدد الأول، 2014.

📖 الخطابي محمد العربي، **ذكرى أبي الفضل عياض اليحصبي** ، مجلة المناهل، العدد التاسع عشر، صفر 1401هـ

📖 فهد بدري محمد، **كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى** ، مجلة المناهل المغربية، العدد التاسع عشر، صفر 1401هـ - 1980م.

📖 المنوني محمد، **رواية مشرقية لكتاب الشفا من طريقا الرحالة الأندلسي أبي الحسين بن جبيرة** ، مجلة المناهل، العدد التاسع عشر، صفر1401هـ

📖 النعيمي مروان فياض مرعى، **مصادر كتابة السيرة النبوية (دراسة نقدية)** ، مجلة التربية والعلم، العدد الخامس، 2012.

📖 ياسين إحسان طه، **القاضي عياض مفسرا من خلال كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، مجلة آداب الفراهيدي السادس ، 2011.

📖 يوسف منصور محمد أحمد، **جهود العلماء في بيان الشمائل النبوية**، مجلة جامعة المدينة العالمية، العدد السابع، سبتمبر 2012.

فهرس المحتويات

الإهداء

شكر وتقدير

قائمة المختصرات

مقدمة 01

مدخل 05

الفصل الأول: القاضي عياض حياته وعلمه وآثاره

التعريف بالقاضي عياض 13

اسمه ونسبه 13

مولده ونشأته 15

مكانته العلمية 17

رحلته في طلب العلم 17

شيوخه 21

تلاميذه 25

وفاته وآثاره 27

وفاته 27

آثاره 29

الفصل الثاني: التعريف بكتاب الشفا

موضوع الكتاب وتوثيق نسبته إلى صاحبه 36

دافع القاضي عياض لتأليف هذا الكتاب 38

منهج القاضي عياض وأسلوبه في كتاب الشفا 40

المصادر المعتمدة في الكتاب 56

الفصل الثالث: قيمة الكتاب وبيان أثره في الحركة العلمية في بلاد المغرب

مزايا الكتاب 61

مآخذ الكتاب 65

شروح الشفا ومختصراته وطبعاته 68

أثر الكتاب في الحركة العلمية في بلاد المغرب 77

خاتمة 86

ملاحق 89

قائمة المصادر والمراجع 96

فهرس المحتويات 102